د. بشير عبدالله المساري

قصة قصيرة

إشراقة الروح

د بشير المساري

إشراقةُ الرُّوح

(قصة حج)

الطبعة الأولى

1444هـ-2023م

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين
على أمور الدنيا والدين

حقوق الطبع محفوظة

almasaribasheer@gmail.com

القاهرة

2010م

من ذا الذي لا يعيش في شوق ملتاع لغسل النفس بـــأداء الـــركن الخامس، حج بيت الله الحرام؟ ويقلب في مرابع النور قلبه الظامئ ينقله من منسك إلى منسك، ومن شعيرة إلى شعيرة في الركن الذي تجتمع فيه العبادات كلها؟ ليعود القاصد رحاب الله كيوم ولدته أمـــه .. أي نعمـــة عظيمة أن يكتب للمؤمن ولادة جديدة في دنيا مـــلأت حياتـــه بـــأدران الخطايا والذنوب.

نحن على أبواب حج عام 1431هـــ ولكن كم من الناس يستطيع ذلك؟ على أن هناك حجا وحجا .. حجا درجة أولى – إن صح التعبير– وحجا درجة ثانية، وحجا رسميا وحجا تسللا محظورا، ولأن الخيارات الأولى في غير دائرتي فثمة عوائق تصل إلى مخاوف ولكـــن لابـــد أن أحج .. وإني لفي أرض الكنانة والسير متاح إلـــى الـــيمن بـــرا مـــن السعودية، وفي أيام الحج وهذا يعني أنني سأمر بالبقاع المقدســـة فـــي موسم الروح، وها أنا إنسان مكلف قد يسألني ربي لمَ لمْ تحج وقد قرأت (ولله على الناس حج البيت)؟ حقا! كيف أتجاوز النداء (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا) وأعود متسللا من جوار بيت الله إلى بيتي وأديـــر ظهري لركن من أركان الإسلام وليس إلى التفويج مســـلك؟ فليســـموا حجي تسللا – شأنهم– سأتجه نحو بيت الله لا نحو بيتي .. صحيح ثمة مخاطر ومآلات .. لكن ِليكن ما يكون.

اليقين الذي لم يبارحني أنني سأحج هــذا العــام .. يجــب أن أستمر في حالة تصالح مع النفس .. لا تراجع عن أداء مناسك الحج إن شاء الله!

كان الإصرار شديدا بعد أن أضعْت فرصة الحج العام الماضـــي .. وفاز بها زملاء آخرون كانوا أكثر جرأة على تحقيق المغامرة .. فقد بات شائعا لدى الطلاب اليمنيين أن الحج من مصر ســهل المتنــاول. ويمكن تحقيق الأمنية بأقل الخسائر المادية مع أنه ليس في الحج خسارة من حيث المبدأ غير أن إمكانيات الحج الرسمي أصبح من حــظ أهــل الحظ .. وحكرا على طبقة الأغنياء، وسبعمائة ألف ريال يمني وهو ما يزيد عن ثلاثة آلاف دولار أمريكي، كثيرة على طالــب يــدرس فــي الخارج، غير أنه في هذا العام تردد ومن خلال إعلام الأراضي المقدسة أنه لا تسامح مع قاصدي البيت الحرام من غيــر تفــويج .. وظهــرت لقطات دعائية تصور أساليب المقيمين في التسلل إلى مكة، وتظهر تلك اللقطات أن الأمن قد وقف لهم بالمرصاد، فضلا عن توجيهات تحذيرية للمواطنين في المملكة الذين يسهلون عملية تسلل المقيمين بمقابل مادي، وأن عمل ذلك من شأنه مخالفة لولي الأمر، وأن المطالبــة بالتصــريح للحج حق (شرعي) ..

كذلك أشيع أن المملكة في هذا الموسم ربما صارت على موعــد بمواجهات جديدة مع الحجاج الشيعة ..وقد لوحت الســلطات الإيرانيــة بحج على الطريقة الشيعية التي يمارس فيهــا شــعيرة البــراءة مــن

المشركين .. وهي الشعيرة التي أفتى مفتي ديار الحرمين ببدعيتها .. ورد عليها خطيب جمعة طهران أحمد خاتمي بالنقد .. وطالب مفتي المملكة بالتوبة إلى الله بسبب هذه الفتوى، ولا يبعد أن يكون لدى طهران فريق لهندسة الحج فيدخل فيه السياسي بالعبادي .. وبالعموم فدواعي الاحتياط بدت أكثر سخونة هذا الموسم وأهم من هذا فقد ألقت أحداث جنوب المملكة مع الحوثيين بظلالها هذا العام ..

توالت الرسائل من المقيمين هناك لأصدقائهم في مصر فأولئك المقيمون نالوا فرصة حج كانت تتغاضى عنه المملكة، وهو الحج الانفرادي المتسلل، والدخول بغير طريق التفويج: "لا داعي للحج بدون تأشيرة حج .. لأن المملكة مشددة هذا العام بسبب المواجهة في الجنوب مع عناصر الحوثيين، وهي تتوقع أن تتطور أساليب المواجهة فيستغل الحوثيون موسم الحج للإلحاد في الحرم مع الإيرانيين وإثارة القلاقل، وأن الدخول غير المنظم للحج أسلوب غير مأمون الجوانب وقد تؤاخذون بجريرة غيركم" هكذا نصحنا أولو العلم من المقيمين في السعودية للعمل .. فالله الله .. اتركوا الفكرة.

على أن ما كان طريفا في سياق التخويف هو مسألة انفلونزا الخنازير، فقد حشدت بعض وسائل الإعلام أسلحتها في التخويف من موسم الحج لهذا العام قائلة إنه سيكون بيئة سهلة لانتقال هذا المرض وتحوله إلى جائحة عن طريق العائدين .. ولكن كإنسان مؤمن سهل

عليّ التوفيق بين نداء الله لهذه الفريضة ووجود المرض فهو ببساطة واقع تحت قدر من دعا إلى عبادته .. فالله الباسط القابض، المانح، المانع الذي بيده مقاليد كل شيء، وبيده الداء والدواء قادر على حماية ضيوفه لم أجد إحساسا بالخوف من هذه الناحية .. وإن كانت الأخرى فهي الموتة التي أحسبني أستحق مثلها .. فمن هذا الذي يخاف أن يبعث ملبيا يوم القيامة؟ .. ولعل المشكلة تكمن في التلقيح، فالمتعين أن يأخذ الحاج الرسمي هذا العام لقاحا، وهو ما يعنى أن المتسلل سيكون منفلتا من هذا الإجراء .. والطلاب الراغبون في الحج إنما يفعلون ذلك من غير تصريح بالحج فهم إنما يحصلون على تأشيرة إقامة .. وهي لمجرد المرور عبر أراضي السعودية إلى اليمن وحسب، وتأتي على أنواع بحسب ما يطلع في تصنيف المختص بالقنصلية السعودية ربما .. فأحيانا تطلع بالسماح لحامل الجواز بالمرور عبر أراضي المملكة لمدة ثلاثة أيام .. وأحيانا لمدة صفر أي مرور وحسب، وأحيانا لمدة ثلاثة أيام مختوم عليها عبارة (غير قابل للحج والعمرة) وهي في كل الأحوال لا تمنح حاملها حق أداء مناسك الحج، غير أن نوع التصريح قد يكون له تأثير على نوع مخالفة الإقامة لو خالفها.

وبالمحصلة فإن العزم على الحج قد غلب كل تلك التهويلات، وغلب على الرغبة في العودة الآمنة عبر الجو لقضاء العيد بين الأهل، إنه من الخبل ترك فرصة فريضة توفر لها – من وجهة نظري– أسباب الاستطاعة، وأن السلطات السعودية نفسها لتدرك أن تحريم الحج غير

الرسمي مخالفة شرعية، والله يقول : (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج : 27] وبحسب اجتهادي المتواضع فإني أرى أنه ليس بعد هذا الأذان إذْن من أحد .. فإذا تمت طاعة الله بطريقة أصبح اسمها مخالفة، فمن يفتي أنها لا ترضي رب العالمين، من أجل ذلك كانت فتوى علماء المملكة أن من حج بطريقة التسلل – وهذا ينطبق على المقيمين مع اختلاف مدة الإقامة – يقع عليه إثم مخالفة ولي الأمر ولكن حجه صحيح، وفي هذا حل مرضٍ كما يبدو من وجهة نظرهم، فهو لا يسقط حق العبد في الاستجابة لنداء ربه، ولا يسقط حق السلطات في ما تراه تنظيما تقتضيها المسؤولية، وقد يدخل في عدم الاستطاعة الكثير من أوجه التفسير.

بعد استكمال إجراءات التقدم للحصول على التأشيرة كان الأمل يراودنا مع الزملاء المتقدمين أن تكون الموافقة من النوع الأكثر أمنا .. ولكنها جاءت بالموافقة على المرور ثلاثة أيام مختومة بعبارة (غير قابل للحج والعمرة) وقد عمق هذا من الشعور أن المملكة أكثر صرامة هذه المرة في منع الحج من غير الطريق التي رسمته .. حسبنا الله ونعم الوكيل.

إلى سفاجة

توجهنا أنا وزميلي الدكتور /أمين الزقار إلى التحرير لقطع الثلاث تذاكر .. الأولى من القاهرة إلى ميناء (سفاجة) عبر حافلة ركاب

للنقل البري، والثانية من سفاجة إلى ميناء (ضُبا) السعودية عبر عبّارة، والثالثة من ضبا إلى جدة.

حسمنا الأمر ورتبنا أمورنا ولا داعي للتردد .. توجهنا في يوم الأربعاء إلى مكتب النقل العام للسفر إلى سفاجة .. وهنا على الراكب دائما في بلداننا أن يتوقع مفاجآت غير سارة مع الشركات، فعهدي بشركات العالم أنها تتنافس في تقديم أفضل الخدمات، وأدق المواعيد، وتوفير أفضل وسائل الراحة .. فيما الشركات في عالمنا تتنافس في تقديم أسوأ الصور وأسوأ ما في هذا السوء أنها وهي تبالغ في زيادة متاعب الركاب تستمتع وتتلذذ، وكأن لسان حالها يقول: أرجوكم بكل صور الرجاء ألا تختارونا المرة القادمة!!.

كان أول ما فوجئنا به من قبل المختصة قولها:إنه لم يتبق لنا مقاعد شاغرة في الحافلة المخصصة لنقلنا إلى الميناء، ولأن المسألة أحيانا مجرد استمتاع في شد الأعصاب .. فقد أقنعناها أن من الحكمة أن نكون ضمن الحافة التي سجلنا فيها لأننا نستحق أن نكون ممن ينالهم مكرمة العطف والرحمة والقبول بنا ضمن أعضاء فريق الحافلة .. فوافقت! ترى لماذا هذا الترويع؟ لا أدري .. ركبنا الحافلة ببساطة .. وهاهي تتحرك نحو ميناء سفاجة التي تبعد عن القاهرة نحو 584 كم .. (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) .. إنها أمتع اللحظات عندما تبدأ الحافلة في التحرك نحو الأمام وقد أخذ كل واحد مكانه .. فمن البدهي أن يساور هذا الشعور الراكب في بلادنا غير المنضبطة بضابط القانون والأخلاق أحيانا، لأن بدء سير الحافلة بمثابة تحقيق

نصر في معركة غير متكافئة، طرفها الراكب الذي يسلم فلوسه مقدما، والشركة التي تتحكم في مصير كل شيء يتعلق بالراكب ثم تصرف له المتاعب بالتقسيط غير المريح، فلا تدري بالضبط ما يخبئه المزاج من عوائق السفر ..

الجو ممتع في تلك الظهيرة والنفوس رائقة مع رواق المكيف المنعش .. مضت الحافلة تتهادى وتغذي طريقها باتجاه الساحل الشرقي لمصر .. عمد البعض إلى هاتفه وما فيه من ألوان الصوتيات الكفيلة بالقضاء على ملل السفر الطويل، وآخر أخذ مصحفه يقرأ بصوت يمكن سماعه، فيما شغَّل سائق الحافلة كما هو دأب وسائل النقل الطويل شريطا مصورا (فيلما) .. ومن المألوف أن تجد في مثل هذه الأفلام مناظر خادشة للحياء .. (لبيك اللهم لبيك) .. ولكن لماذا اللوم؟ فقصدهم برئ ونياتهم سليمة إنهم يريدون الترويح عن الراكب، حينما صار الترويح لا يكون إلا بالشم والضم والمص والرقص .. ولذلك ازدهرت بعض البلاد العربية بصناعة العري وتصدير الفساد، وتقبله الحكام بقبول حسن كونه قوْت الفقراء وفيه مواساة لشعوبهم المحرومة، فإذا لم يسعها – أي هذه الشعوب– أن تملأ بطونها بالطعام وعقولها بالمعرفة فلا أقل من أن يسعها أن تملأ عيونها بمناظر الخدود والقدود والنهود .. إلخ والجود من يجود بالموجود وحسبنا الله ونعم الوكيل.

لم ندر عن سر اختيار الموظفة ما رأيناه في بداية الأمر مكانا ملائما في الحافلة، فأمامنا لا يوجد ركاب .. ولكن طاولة لوضع الأمتعة الخفيفة عليها .. ثم الدرجات المؤدية إلى الباب، غير أن سر الاختيار ربما كان غير برئ فقد وجدنا مكاننا مسرحا للنازلين والهابطين .. ثم اكتشفنا أن موضع الإقبال يعود إلى الحمام الذي تحت السلم أمامنا مباشرة .. وعلينا شئنا أم أبينا أن نواجه ظروف المكان غير الملائم .. وكان من الطُّرف أن أحدهم أدخل قريبته إلى الحمام فطلب من صديقي منديلا لـ .. ومن غير مؤاخذه فبادر صديقي عن حسن نية بإعطائه ما أراد، فقلت : ما بقي إلا هذا.

ونحن نسير عبر الساحل الشرقي لمصر لم تكن الطريق كلها صحراء جرداء .. فهذه واحات صناعية تصادفنا على الشاطئ أقيم عليها منتجعات وقرى سياحية صغيرة، وبعد إكمال الحافلة انعطافها في أحد المنعطفات تفاجأنا بوجود فندق ضخم يظهر أمامنا في مكان شبه خال .. عجبت من ضخامته في هذا المكان، بل لم أر في القاهرة نفسها بمثل ضخامته، لقد بدا هذا المشهد المتناقض كما لو كانت رؤيا منام .. فهذا فندق كبير رسم بطريقة متعرجة، في أرض نائية يسودها سكون وقلة حركة وندرة سيارات، وقد وجدنا عليه أعلام الاتحاد الأوروبي وبعض الدول الخليجية، ثم قرأنا في أحد الصحف أنه استضاف فعاليات رياضية ..

بعد ما يقرب من ستمائة كيلو توقفت حافلة الركاب في ميناء الغردقة المنتجع السياحي لإنزال بعض المسافرين، ولا يزال على نهاية الرحلة 80 كم ثم فوجئنا بالسائق يطلب من البقية إنزال أمتعتهم قائلا: إن حافلة أخرى ستقلنا لاستكمال بقية الرحلة، ثم بكل برود فوجئنا به يقول: إن هذه هي آخر محطات الرحلة وأن على الركاب أن يتصرفوا في نقل أنفسهم إلى حيث يريدون؟! ألم أقل إن هؤلاء غريبون في تعهداتهم ومواعيدهم وطريقة تصرفهم مع الزبائن لم نترك لهم ممارسة البلطجة ورغم أننا في عرف التمزيق الشعوبي (أجانب) لكن أنا وزميلي استطعنا تحريك الركاب والذهاب إلى مكتب الشركة، وقد أخذ السائق يراودنا الاثنين عندما وجد أننا أكثر إصرارا على الرفض وطمّعنا بفلوس تبلغنا بقية المسافة ولا شأن لنا بالآخرين، غير أننا رفضنا العرض وبكل حزم أجبرناهم مع بقية الركاب على إكمال الرحلة إلى مكانها المحدد (سفاجة).

تجربة لا تنسى

هذه هي سفاجة والساعة تشير إلى السابعة ليلا، منطقة هادئة، جوها بارد في هذا الفصل تقع بالمنتصف من البدائية والحداثة، يمكن أن نقول إن المواطنين جملوها بأموالهم من حيث البيوت الحديثة وفنادق معدة لاستقبال النازلين، وخدمات من مطاعم ودكاكين محدودة، إلا أن دور الدولة متأخر عن المواطن كما هو حال الكثير من مدننا العربية، فها نحن ننزل في الشارع الرئيسي الذي يدخل الراكب منه إلى الميناء .. شارع ترابي على جنبيه خطان ازفلتيان مستهلكان، وفي الجزيرة الفاصلة بين الخطين وضعنا حقائبنا الصغيرة .. لا توجد هنا استراحة لركاب العبَّارات الذين افترشوا الأرض بالمئات، ولا حمامات عامة .. ولا مساجد قريبة .. وكان علينا أن نصلي العشاءين صلاة مسافر، فحصلنا على اليسير من ماء الوضوء فصلينا ثم احترنا في القيام بالخطوة القادمة، لقد كان كل شيء متجمدا أمام الشاشة المرئية .. متسمرا كتماثيل الشمع، فهم بين سكون كالأموات وبين صرخة مفاجئة مدوية كالرعد القاصف .. لذلك فمكاتب التأشيرات معطلة وعمالها أمام التلفزيون، والركاب يزدحمون في المقاهي أمام الشاشة أيضا، ومن الصعب استخراج معلومة في هذا الجو المشدود الذي وضع المصريون أياديهم على قلوبهم وهم يشاهدون المباراة الثانية بينهم وبين الجزائر، والتي ستحدد من سيتأهل إلى البطولة الكونية، هذه المباراة كان قد سبقها معارك صحفية عاصفة بين البلدين انتصر فيها الشيطان واستدرج

الفريقين الصحفيين في كلا الدولتين إلى هزيمة أخلاقية مدوية، بحيث لم يبق للعقل معها مكان، كأنما كانت هذه المباراة هي الفرصة التي لا تتكرر لإظهار الولاء الوطني وحب المواطن والدفاع عن مصالحه .. لقد كانت ليلة تاريخية تصلح لأن تكون حدثا يؤرخ بها الشارعان الرياضيان تأريخ مواليدهم وعقود زواجهم ووفياتهم .. فالكرة باتت شاغل الناس في محافلهم وحافلاتهم ونواديهم، لقد اختزلت معاني الفتوحات العظمى وبطولات معارك التحرير الخالدة!! فالماتش مع فريق الجزائر معركة مصير فإما نكون أولا نكون .. تحولت جماهير الكرة المصرية إلى عقول ملتاثة بهوس العشق لمصر .. والولاء لمصر والتضحية من أجل مصر!! ولكن عن طريق الانتصار على فريق الجزائر الكروي .. ولم يكن الجزائريون بأقل جنونا من إخوانهم المصريين.

وإن كان في تلك المظاهر من سيء وأسوأ فإن أسوأ ما فيها هو أن كل طرف استدعى العناية الإلهية لتقف إلى جانبه، فالإخوة المصريون يدعون الله في الصحف بالنصر على الأعداء، ومما قالته بعض الصحف المصرية أن الله سيقف مع دعاء 84 مليونا وأن النصر لمصر، فيما أحد المغنيين الجزائريين يرد بأن الله لن يستجيب لدعوات الراقصين ولا دعوات العمائم التي تصافح بيريز، وعندما تسمع جماهير الكرة في الجزائر هذا الرد يصفقون ويعتبرونه نصرا في ضربات الترجيح الصحفية .. وما أسرع ما ينتشر هذا في الشبكة فتتجلى

المفارقة في أعلى صورها، فها هــو الله – عــز وجــل – صـــاحب المطلقات أصبح موضع استقواء للمسلمين على بعضهم البعض، وهــو إذ تنساه الشعوب في بقية حياتها، تستدعيه كطلبية خاصة توضـــع فـــي غير مواضعها، وتوظف في غير أماكنها، في الوقت الذي لم يكن أحـــد يجرأ على الدعاء هناك للمجاهدين أن ينصرهم الله على الصـــهاينة .. إنها شعوب تم تغفيلها وتسطيحها وتوظيـــف مشـــاغل اهتمامهـــا فـــي التفاهات، وإنه ليستبد بك العجب كيف قلبت الموازين، وأصبح دخـــول كرة منفوخة بين قائمتين أسمى معاني الحياة، وبها ينعقد الولاء والبراء، وعليها تحدد العلاقات، مع أنها لا تطعم جائعا، ولا تكسي عاريا.

***

انتهاء المباراة بين مصر والجزائر

انتهت المباراة في السودان بهدف للجزائر، وقد أعقبه معركة (ذات السكاكين) في شوارع الخرطوم، حيث اتهم المصريون الجزائريين بأنهم استقدموا جماهير عسكرية قامت بمطاردة المصريين في شوارع الخرطوم، وأن هناك جرحى ومصابين، وهناك من لايزال محاصرا ويطلب النجدة من السلطات المصرية على الهواء مباشرة ، وبدوره يهدد النظام المصري أنه سيدافع عن كرامة مصر بكل ما يملك (!!) وشر البلية ما يضحك.

بالنسبة لي والأخ الدكتور أمين مثل لنا نهاية المباراة إنجازا في سياق معاملة الرحلة، فبعد المباراة توجهنا إلى مكتب التأشير الخاص بشركة الباخرة التي ستقلنا، وهناك أمام المكتب رأينا من صور الآدمية المكدسة مالا يخطر على بال .. المئات من الركاب تتدافع وتموج في غير ما نظام، ولا من ينظم، ثم وبعد جهود مكثفة من قبل عقلاء الراكبين ينتظم طابور من طوابير متداخلة ولكنه طويل وطويل، وكان الموظف يغلق الباب في وجه الركاب في صلف وعجرفة عندما لا يأنس فيهم الانتظام المطلوب .. مع أنه هو وشركته خلقوا الفوضى وتسببوا بإهمال في تكدس حملة عبَّارة تصل إلى أكثر من 1200 راكبا .. والعجيب أن المسألة ليست مجرد تأشيرة كما ظننا، إنه إجراء أطول من مجرد وضع ختم، فعلى الراكب تسليم الجواز ليتم الذهاب إلى الطباعة لكتابة بعض المعلومات على ورقة خارجية تلصق بالجواز لا

تدري ما مغزاها ولكنك تدري أنها تأخذ الكثير من الوقت، وصل إلـــى الثانية والنصف صباحا من التاسعة مساء.

بعد خروج الجوازات في كراتين ضخمة تـــم اســـتدعاء جـــيش الركاب بسماع أسمائهم، فيتراص الركاب على بعضهم ليقف موظـــف عجوز بصوته المبحوح وسط جموع البشر يصيح كإنسان ســـقط فـــي أسفل بئر .. فتسمعه الحلقة الأولى والثانية ولا يسمعه بقية الركـــاب .. ومن لم يتمكن من سماع صوته ويبادر بالرد بأنه حاضر رمى جـــوازه في ناحية .. ويستمر الصراخ نحوا من ساعتين والناس على أقـــدامهم وقوف .. وبعد انفراج الجموع واستلام كل جوازه .. استأنف الركـــاب العودة إلى الشوارع، يفترشون التـــراب ويلتحفـــون الســـماء، وســـط العواصف الترابية، والتيارات الهوائية الباردة، وكان اللافـــت أن مـــن الركاب من تزود بالفرش والأطعمة المخللة لأنه من رواد هذه العبارات .. ويعرف مصير رحلاتها السعيدة، لذلك كان المقلب الكبير من نصيبي ونصيب صاحبي لأننا استعدينا لحرارة السعودية ولم نســـتعد لبـــرودة مصر .. قعدنا بين برودة الجو وحرارة الجوع .. ولو كان لـــدى هـــذه العبَّارة التي اسمها (الكليوني) موعد محدد لانصرفنا إلى أقرب فنـــدق وحجزنا غرفة، ولكننا لا ندري متى سيفتح الميناء أبوابه، ولا متى تقلنا العبَّارة، إذ لا وجود لأي معلومة عن موعد إقلاعها .. ولا ما تنوي هذه العبَّارة فعله .. إنه شيء لا يصدق .. لقد استمر علـــى وصـــولنا 10 ساعات أي من الساعة 7 ليلا وحتى 5 صباحا، صلينا الفجر وانتظرنا

طلوع الشمس بفارغ الصبر كي نولِّها ظهورنا وتعطينا شحنات حرارة تبقي فينا شيئا من التوازن .. ها هي الشمس تطلع والنـــاس ســـاكنون كسكون القبور وقعدت أتأمل في هذا الذي يحدث .. بشـــر ينتظـــرون المجهول دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة يعترض بها على هذا الإهمال واللامبالاة .. أخذت أتأمل في هذا العشق الذي يحـــب المصـــريون أن يجاهروا به في حب بلدهم وبصورة دروس يومية مملة لا أدري إن كان لها نظير في العالم .. وليس القصد أنه من غير الملائم حب الإنســـان لوطنه بل هو دليل وفاء لأرض ارتبط بها مصيره، ولكن من المعيـــب في إلزام المواطن نفسه ما لا يلزم .. أي استعراض الحب لوطنه مـــن طرف واحد .. من غير ثنائية ودية .. فأين كرامة الإنســـان هنـــا؟ .. الآن خمسة عشر ساعة تمر على لحظة وصولنا هنا ..

ها هي الجموع تجلس القرفصاء بالمئات وقـــد حـــاولوا تنظـــيم أنفسهم كيفما اتفق .. في طوابير أمام بوابة مغلقة ينظرون إليها بأمـــل منكسر، عليها شاب فتوة مفتول العضلات إذا رأى أحدا ند من الصـــف .. أو حاول الاقتراب من بوابة جهنم هذه، قام يصيح في الناس بصوت جهوري:

– كل واحد يحترم نفسه .. لا تضطرونا إلى عمل ما لـــيس لـــه لزوم، ثم يقترب من الصفوف ويبعثرها .. يدفع هذا ،، ويصـــيح علـــى هذا .. حتى إذا وجد أنه أخذ حاجته من التســـلط عـــاد لـــيجلس علـــى الكرسي، وضم ذراعيه المفتولين على بعضها، إنهـــا قصـــة مـــوظفين

صغار تتكرر .. يستخدمون كأدوات استعمالية بيد الكبار، ودأْبُ هؤلاء الصغار أنهم إذا حكموا تحكَّموا، وإذا كبروا تكبَّروا، فماذا يعني اقتراب الركاب أو ابتعادهم من مكان لا يبدو فيه رجاء ولا نفع، وهل كثير عليهم أن يتزاحموا على الهواء ويثيرون على رؤوسهم الغبار بدون معنى؟

في هذه الأثناء كنا نتلقى اتصالات من زملاء يمنيين يسألوننا عن الوضع لأنهم في طريقهم إلى (سفاجة) أيضا ويسألوننا ماذا يحضرون معهم .. فقلنا احضروا معكم كل سلاح الحلم والصبر، وكل ما يخطر على بالكم بما فيها الحفّاظات إن أردتم! ..

مر الوقت مملا جدا حتى جاء خبر لعله من مصدر موثوق أن العبَّارة لن تعبر .. وأنها دخلت في عملية صيانة كبرى، هذا هو كل ما في الأمر وفي خضم اللغط وتناقل هذه المعلومة، سألنا إن كان مثل هذا الأسلوب قد حدث من قبل فعرفنا أنه يتكرر وأنه قد تؤجل الرحلة لعدة أيام وربما لأسبوع! يا الله .. ماذا نفعل؟ هل نعود إلى القاهرة وننهي الفكرة؟ كنا وزميلي نعبِّر للأخوة المصريين بلغة السخط عن هذا الاستهتار وصمت الناس غير المبرر ونزعم أن هذا لو كان في اليمن لكان الوضع مختلفا .. أما هل هذا صحيح؟ فالله أعلم .. واقترب وقت الزوال وعندها سمعنا صوت امرأة تصرخ أمام البوابة تستهجن هذا الإهمال .. وتسأل عن حكاية رحلة العبارة إلى السعودية .. ثم بدأ الناس

يقتربون في حركة احتجاجية نحو البوابة فبدأت لهجة الشـــاب حـــامي الحمى التخلف تلين وتدفع بالتي هي أحسن، ثم تصاعدت الاحتجاجات إلى إقفال الخط العام ومنع الحركة المرورية، وكنا أنـــا وزميلـــي فـــي طليعة المحتجين، وها هنا جاءت الدولة وظهرت مجاميع الشركة وبدأت المسؤولية تعمل في اتجاهين .. في فتح الخط والبحث عـــن صـــاحب العبَّارة، فما لبث أن جاء الخبر بأن الشركة استجابت للجماهير وتزمـــع استئجار أخرى، وعشنا وقت المفاوضات كمـــا بلغنـــا بـــين أصـــحاب العبارات .. وحتى الساعة السابعة ليلا سمح بدخول الميناء أي بعد 24 ساعة من دخول مينا سفاجة الذي أطلقنا عليه بعد ذلك (صفاقة) وذهبت المئات المحتجة تقطف ثمار الحركة وتدخل الميناء.

نعم تحركي أيها الشعوب، إن الحركة معادل موضوعي للحيـــاة والسكون معادل موضوعي للمـــوت تحركـــي لـــيس بـــآلات المـــوت بالضرورة .. بل تعلمي مهارات النطق على الأقـــل .. تعلمـــي كيـــف تعبّري عن نفسك بصوت مسموع .. فكل الأسماع معطلة حتى يـــدوي فيها صوت .. وما طرش الحكام إلا من خرس الشعوب.

***

رحلة العبور على العبارة

كان (د. أمين) أكثر مني جرأة على الحديث مع أي إنسان في أي شيء .. فالناس عنده دفاتر مفتوحة ومن حقه أن يقرأها، ولا يتردد في أن يستعملها لمنافعه أحيانا، وكثيرا ما تجده قد انخرط مع أي عابر سبيل في سوالف ونكات، ويكون قد دوَّن رقم هاتفه وعرف حالته الاجتماعية وو .. إلخ وهذه الميزة بقدر ما فيها من فوائد لا تخلو من المحاذير في بعض الأحيان، ومن فوائدها أنه أخذ الجوازات التي أصبحت ثلاثة مع أحد الأخوة المصريين المقيمين في السعودية واسمه "حمدي" شاب دمث الأخلاق لعله وجد الانسجام في مصاحبتنا، وبدلا من أن ننتظم في طوابير قاتلة مع الناس قدم الدكتور الجوازات للضابط قائلا:

– نحن ضيوف عندكم ندرس دكتوراه ويكفينا ما فينا من الإرهاق والتعب، فاجعلوها يدا بيضاء نذكرها لشعب مصر الشقيق دعنا ندخل .. وفعلا تجاوزنا الطابور الأول طابور الدخول .. والطابور الثاني طابور التفتيش وكل طابور يقول لنا :

– انتم عرب؟

– نعم.

– من أين؟

– من الجزائر.

- أوعوا!!!

- من اليمن.

- لو كنتم جزائريين مش حتدخلوا.

حتى وصلنا إلى طوابير التأشير فالتزمنا النظام، ولما حان دوري فتش الضابط الجواز وهو يختلس النظر إليَّ ويتباطأ ثم قال: صلِّعالنبي يا بو يمن .. ولما رآني متجاهلا قال : ما تعرفوش الحلاوة يا أبو يمن؟ ففهمت أنه يريد (حق ابن هادي) وهي العلامة المسجلة عندنا في اليمن .. وللأسف أن الحلاوة في المنافذ المصرية حاجة تقرف، ففي مطـــار القاهرة لا يخلو أن يعترضك أكثر من مسؤول يطلب جنيهـــات بهـــذه الطريقة أو بتلك .. لماذا بس؟ مع أن هذه المنافـــذ هـــي وجـــه البلـــد، اتركوها لبلدكم التي تحبونها وجملوها بالصبر .. حتى ذلك العجوز الذي يشرف على الوزن في الطائرة اليمنية يمكن أن يعدِّي أي وزن بخمسين جنيه تزيد أو تنقص وباتفاق واضح مع المختص على الحاسوب .. إنني أكره مثل هذا في أي مطار عربي، وبالأخص مصر التي يجب أن تقود العرب على الأقل في المتاجرة بالسلوك الحضاري واســـتثماره ولـــيس العكس، وبالعموم يبقى المسؤول عن حالة الشظف المذلة هـــو الثقـــب الأسود الذي على رأس النظام سواء في الـــيمن أو فـــي مصـــر، هـــو المسؤول عن ابتلاع كل شيء أذلهم كما أذلوا شعوبهم ..هذه قناعتي.

دخلنا السفينة المستأجرة (المسرّة) سعتها 1200 بني آدم فضلا عن شحن الشاحنات والرافعات الضخمة في الدور السفلي إنها مدينة عائمة.

سيتعين علينا الانتظار لاستكمال دخول الراكبين ولكن كم؟ ساعة .. ساعتين .. ثلاث .. بل ثمان ساعات دون أن تتحرك العبارة .. ثمان ساعات جزء مهم من عمر الإنسان .. ولكن ما عسى أن تفعل في رحلة الامتحانات النفسية العسيرة هذه .. إننا ندرك أن رحلة الحج هي رحلة عبادة وفرصة لتنقية الذنوب بالتحلي بحلة الحلم، والتجمل بجمال الصبر .. كان الركاب يدخلون أرتالا وراء أخرى .. ومباشرة يأخذ الراكب مكانه في أي مكان وينام كنوم أهل الكهف .. لقد ألقى الناس بأنفسهم مع الإعياء والتعب في الممرات وفوق الكراسي وتحتها وانخرط بعضهم في نوم عميق .. واستمرت الأرتال تتدفق وجعل الدكتور يتململ ويذكرني بنكبة العبارة (السلام98) المصرية التي غرقت في مياه البحر الأحمر عام 2006م وراح ضحية الحادث 1034 قتيلا و386مصابا .. ويعترض على زيادة الحمولة وأنا أعجب من تقديراته وهو لا علم له بنصاب العبارة .. ولكن عندما مر أحد مسئوليها لم يصبر فنادى عليه:

– هيه تعال .. أنت مسؤول في العبارة؟

– نعم.

– يعني لم تتعظوا بالعبارة السابقة وكله نتيجة جشـــعكم كفايـــة ركاب، أين تريدون أن تذهبوا بنا؟؟ .. سبع ساعات تشحنوا بنـــي آدم وسيارات وجرافات أما يكفيكم؟

– ياراجل صل عالنبي ماتخوفش الركاب قل بسم الله ما شاء الله ..يارب وصلنا بالسلامة أنت من فين؟

– من اليمن.

–وكمان من اليمن!

لم أفهم مغزى العبارة ولكني أفهم أن بعض شعوبنا انصرفت عن البناء والإنتاج وامتهنت الانشغال في استعراض جوانب العظمـــة مـــن خلال إبراز جوانب الضعف في شقيقاتها وتجدها في مستنقعها مقتنعـــة بهذه الحصيلة البائسة، وإنما هي كما يقول المثـــل العربـــي رأس فـــي السماء واست في الماء، وقد جاء هذا أحيانا بطريقـــة رســـمية تبناهـــا الإعلام– أي صفة الاعتداد بالشعوبية والتعالي الـــذي قوامـــه الـــوهم والخيال الفارغ، ولن أكون متجنيا إذا قلت إن مـــرض الاستعراضـــية ظاهرة هنا ولم يتح لي زيارة أكثر من قطر عربي لأقـــارن .. فـــأول سؤال تجده .. أنت من فين ؟ فمنهم من يقول : أجدع ناس. ومنهم مـــن يتبعها بعبارة تقرأها على أنها سخرية مع أن الجميع تقلهم سفينة واحدة هي سفينة التخلف.

تحركت العبارة واشتغلت معها شاشتان مرئيتان وكان علينا أن نتحمل ضغط الاستهلاك المجاني للوقت وضغط المباراة الجزائرية التي لم تبارحنا للحظة واحدة طول الرحلة، لقد أصبحت مادة الإعلام الذي لا يكف عن ترديد مصر التي قدمت الكثير .. مقابل العرب الذين ما يستاهلون، وما في معناه وتشعر أن المكينة الإعلامية تدار بشكل رسمي ومتعمد. مع أهمية تسجيل همجية الإعلام الجزائري في هذا الشأن كما سبق.

العبارة تتحرك ..ما شاء الله .. حقا العبارة تعبر البحر .. نصر من الله وفتح قريب .. ها هو المزلاج يقذفني لأول مرة من عالم البر إلى عالم البحر (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) لقد تحركت السفينة .. صلينا الفجر وتنفس الصباح وأسفر بوجهه من بين رذاذ الأمواج المتراقصة .. دعنا نلقي نظرة على البحر من سطح السفينة .. وما إن أطلينا حتى ألقى البحر على النفوس المكدودة من عبق هوائه المنعش ما بعث فيها السعادة ورسم فيها خيوط الأمل ..لنتحلل من لحظات مضت أخذت منا الكثير من العناء والتعب والتحمل .. هيا ننظر إلى الأمام وكأن شيئا لم يحدث ..الله ما أجملها من لحظات فريدة! هاهي غلالة السكينة البحرية التحف بها على وجه الحقيقة، فلطالما عشت مع البحر قبل أن أعيش فيه .. فكنت إذا أرقت أتخيل أنني أنام في غرفة رحبة محكمة الإغلاق على سفينة في البحر تسير السفينة بسكون وتوأده .. وهي إذا تمخر عباب البحر وبعيدا عن

ضوضاء اليابسة وضجيج المدن تخلف للموج بعضا من الإيقاع الخافت والرتيب الذي ينساب في الجسم فيسلمه للنوم .. هذه التحايا البحريـــة تهدأ معها النفس بعد اضطرابها، ويسكن معها الذهن بعد انشغاله، إنـــه فرار من هموم البر إلى نقاء البحر .. هاهو الجبل الحديدي الضخم يشق طريقه، ويخلف وراءه أخدودا من لُجج البحر الممخور .. وهنا تذكرت الحضور اللافت للبحر في القرآن الكريم، ورغم نزول القرآن في أرض صحراوية ولم يكن للعرب تجارب كبيرة مع البحر بل ولم يركب النبي – صلى الله عليه وسلم – البحر ولو لمرة واحدة . ومع ذلك جاء القرآن ليلفت الأنظار بقوة إلى البحر كمكون حياتي لا غنى للإنسان عنه فلولا البحار لما كانت هناك حياة أصلا لأن منها يسوق الله الأمطار فتنـــتعش الحياة وتستمر المسيرة.

دروس السلامة

كانت تلك هي الخواطر التي تواردت مع أول رحلة على البحـــر أما رفيقي وأنعم بمثله رفيقا فقد كانت دروسه من نوع آخـــر، تتصـــل بثقافة ركوب البحر ..أخذ يدور بنا في سطع العبارة ثم توقف أمام جهاز معلق:

– هذا هو جهاز الإطفاء فيما لو حدث حريـــق لا ســـمح الله. .لا سمح الله ..

ثم استمرينا في التجوال وفجأة مشيرا بيده:

– وهذه قوارب النجاة فيما لو حدث ما ينم عن خلل ..سبحان الله .. معرفة الشيء خير من جهله .. ويبقى فوق مقعد كل راكب سواتر نجاة لمن لا يجيد السباحة ..

وبالتواصل الهاتفي مع الحبيبة أم البنين أخذت أيضا تعطيني دروسا عن دوار البحر فأدركت كم هو متواضع حظي من معلومات كهذه ليس بأحد عنها غنى.

إنها تعليمات هامة وكان المفترض أن تقوم بها إدارة العبارة .. ولكن لا تدري كم من الوقت تحتاج أنظمتنا حتى تدرك كم هي مهمة حياة الإنسان.

لا أدري لماذا لم أشعر بالخوف من هذه التجربة .. لعل ذلك يعود إلى المرور بمخاطر جعلت من حياتي ربحا إضافيا.

فقد نجوت برا مرة وجوا مرة أخرى كل مرة كانت نجاتي فيها أغرب من الخيال فهل ستتكرر مرة ثالثة بحرا؟

أما تجربة البر فكانت ذات رحلة مع قريبي بسيارته إلى ذروة نقيل مناخة من صنعاء باتجاه الحديدة .. حيث تفاجأ في نهاية النقيل بانعطاف حاد باتجاه اليسار وهو مسرع فاستمر بخط مستقيم نحو شفا المنحدر السحيق . ارتفعت السيارة إلى السماء فنطق لساني .. بلا إله إلا الله. . وابني الصغير عمر نائم في الخلف .. فما الذي حدث؟

كانت أمام السيارة كدية صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن 80سم ارتطمت بها السيارة ثم عادت مرة ثانية مرتطمة بالطريق .. كانت خلفنا سيارة ركاب بيجوت تسمرت مكانها ثم خرجنا من السيارة حتى إن ابني لم يستيقظ ..ثم خرج الركاب وقد عقدت ألسنتهم الدهشة والعجب..وكان سؤالهم هو: كيف رجعتم من الهواء مرة ثانية إلى الطريق؟؟؟

قلت: والله لا أجد تفسيرا سوى أنني في طريقي لزيارة الأرحام وقد قرأت مأثورات الصباح ودعاء السفر .. وقريبي في طريقه لزيارة الأرحام وبناء مسجد القرية ..فلعل مرد ذلك إلى عناية الله ... ذلك ما حدث لي برا.

أما حادث الجو فقد كان بصحبة زميلي الدكتور /منصور جبارة في طريقنا لإكمال برنامج الدكتوراه في جامعة القاهرة .. فبعد أن دخلت طائرة الركاب اليمنية أجواء المملكة وفيما الركاب في حالة سعادة واطمئنان قد اختلطت الأصوات بالضحكات كل مجموعة تتطارح فيما بينها آمال الرحلة وإنجاز أهدافها، وإذا بصوت الكابتن يرن بعبارات استثنائية لا تنسى، إنها عبارات حملت لغة تفرق بين لحظات الحياة والموت ..عبارات كنتُم فبتّم، حيث قال:

– الإخوة الركاب نحن الآن نحلق في سماء مدينة القُنفذة في أجواء السعودية ..ونلفت عنايتكم إلى أننا بصدد العودة إلى مطار

صنعاء حيث توقف أحد محركات الطائرة .. يرجى ربط الأحزمة وأن يلتزم كل راكب البقاء في مقعده.

بدأت الطائرة تترنح وتعطي أصواتا ارتجاجية مرعبة.ران على الركاب هالة من الوجوم الرهيب .. وخفتت الأصوات فلا يتناهى إلى مسامعك سوى ما ندر من تهامسات مذعورة .. لقد انتهت في لحظة أحاديث الدنيا وانتقلت النفوس إلى هاجس حديث الآخرة وشبح الفراق.

ثم بدأت أصوات الاستغاثة والدعاء والرجاء تتعالى، ومنهم من أخذ يتقيأ ومن رمى نفسى على الكرسي في استسلام ومشاعر مليئة بالكثير والكثير من المفارقات.. بين لحظات ولَّت كانت تعج بالسعادة ولحظات إقبال نحو مصير يقول لنا هذه هي نقطة العبور نحو الآخرة، كنت لا أزال اقرأ في المصحف والذي نفسي بيده لم أجد طمأنينة كتلك التي كنت عليها.

نظر إلي زميلي مذهولا قائلا؟

- هل سمعت؟؟

- نعم.

- أحقا هذا الذي سمعنا؟

- وهل يمكن أن يلعبوا في كلام خطير كهذا؟

رمى رأسه على ذراعية على الكرسي وهــو يقــول: يــا رب أولادي .. وعادت الطائرة قافلة نحو مطار صنعاء من القنفذة أي مــن أجواء الأراضي السعودية .. وفي كل هذه المسافة والطائرة ترقص بنا رقصة الموت .. بين تمايلات عاصفة وأصوات مرعبة .. وارتجاجات منذرة بالخطر الماحق .. ولكن وبحمد الله استطاعت الطــائرة تجــاوز المحنة والعودة مجددا إلى مطار صنعاء .. هبطت بسلام وربحنا حيــاة جديدة ..وقد استغرب كباتن آخرون كيف سارت الطــائرة كــل هــذه المسافة بمحرك واحد!.

إن الذي أنجانا برا وجوا لهو الذي سيحفظنا بحرا.

هاهي شواطئ الأحلام .. أحلام ملايين سبقونا في رحلة مــيلاد جديد إلى بيت الله العتيق .. هذه هي اليابسة تعطينا تراسلات الألفة تطل منا غير بعيد .. وتقول على حضني فقط تربيتم هلمــوا ألــيَّ مجــددا ولاتذهبوا بعيدا.

هذه هي الأراضي السعودية وهذه هي ميناء (ضــبا) (وَقُــل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) [المؤمنون : 29] وصلنا إلى ميناء (ضبا) السعودية في التاسعة صباحا من يوم الجمعة في 3 من ذي الحجة .. وكنا نأمل أن تتغير الأمور ونجد من سبل الراحة ما تنســينا لحظات المتاعب التي واجهتنا على الأراضي المصرية، هاهي قــدمي تطأ الأراضي السعودية (اللهم إنا نسألك خير هذا البلد وخير مــا فيــه

ونعوذ بك من شره وشر ما فيه) ولا نشك أن خيره أكثر مـــن شـــره، فنحن على مقربة من مهبط الوحي.

ميناء ضبا أقل من عادي دخلت من بابه فوجدت التنظيم يدويا من دون لوحات إرشادية، ولا ممرات تنظيمية، وعنـــدما اتجهـــت ناحيـــة الدكتور أمين الذي سبقني فوجئت بحائط صدر رجل شرطة يحول دون تقدمي قائلا:

- اجلس هنا.

- ولكني أريد أن ألحق بزميلي الذي بدأ ينهي إجراءاته.

- هل لديك أمتعة؟

-لا.

- تفضل أمش.

وفي الطريق بادرني آسيوي من الهند يشرف على الفحص الآلي قائلا باللغة (الهندرية) الشائعة في تلك الأراضي والتي هي مزيج مـــن العربية والأردية : هيه أنت لازم في فحص معلوم؟ ضـــع هنـــا كلـــه وبعدين في انتظار.

فحصنا .. ثم تم تأشير الدخول .. فحصنا وخرجت النتائج آمنة ولله الحمد .. خرجنا نبحث عن شركة الحافلة واسمها (حافل) التي قطعنا تذكرة الركوب معها من مصر، ولكن لا أثر لها، أخذنا نبحث عن الاستراحة للراحة فلم نجد استراحة، وأعني بها كراسي تحت سقف يقيك من الحر والقَرّ وغبار الصحراء هذا كل ما في الأمر، ولكن حتى هذا يبدو في حق مسافر عربي ترف ومن باب لزوم ما لا يلزم .. حسنا ..سيأتي يوم تتغير الموازين ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .. افترشنا الأرض تحت شجرة أرسلت ظلالها لتقي عشرة ركاب أو يزيدون، غير أن دوام النعمة من المحال وهناؤنا لم يستمر فقد أقبل مسؤول بسيارته يطلب منا التحرك ليضع سيارته تحت هذه الشجرة، ترى أين تدحرجت الأخلاق! .. هل السيارة أولى بظلال الشجرة منا؟ انتظر الناس مبعثرين على الأرض تحت حر الشمس اللافحة وصول حافلات (حافل) لإكمال الرحلة كل إلى جهته،لقد كانت حقا (حافل) ..ولكن بالمشاكل!!

***

رحلة المتاعب إلى جدة

استمر الانتظار في ميناء ضبا ثمان ساعات متواصلة لشركة النقل (حافل) حتى الليل .. ثمان ساعات وكلها في حالة ترقب واستنفار .. اللهم اكتب لنا على قدر نياتنا.

ثم بعد تشكيل لجان ابتعاثية إلى مكتب الوكالة وتشكيل غرفة عمليات اتصال مستمر أقبلت الحافلات، وعندما أطلت الحافلات كانت الفرحة التي لا توصف، إن هذه الفرحة بعد كم المعاناة جعلت مصدر الإيذاء وكأنه المخلِّص والمهدي (المنتظر) الذي جاء لينقذ الناس وهو لا يريد منهم جزاء ولا شكورا، أعني أن وجود الفرج ينسي أصحاب الذاكرة الضعيفة كل حقوقهم، ويقبلون باللحظة التي هم فيها فاستقبلوا الحافلات لا بالحجارة بل بالتصفيق حتى ليوشكوا أن يحتضنوها ويقبلوا إطاراتها وهذه إحدى مشاكل المواطن في المجتمعات غير الواعية التي تعاني من غياب الثقافة الحقوقية ..إنها لتعاني داء النسيان لا أدري عن حجم الإيجابية التي فيها أمام ما فيها من سلبية.

تدافع الناس على الأبواب وجرت اشتباكات مع سائقي الحافلات؛ لأن على السائقين التأكد من التذاكر وتسجيلها، والناس يهمهم أن يجلسوا على المقاعد، وبعد معركة حامية الوطيس ركب جزء من الركاب وامتلأت الحافلات، وبقي البقية في الشارع ونحن منهم، ذهبنا لنشتكي إلى سلطات الميناء ولكن بدا وكأن الأمر لا يعنيها .. أو أنه يعنيها ولكن

بدرجة لا يشكل انحيازا للركاب على صـــالح الانحيـــاز للشـــركات، فتساءلت ما الذي يجعل دولة كبيرة كالسعودية مطلوب منها أن تقــود بقية الشعوب في النظام فهي بلاد الحرمين وبلاد النبي الخـــاتم؟ لمـــاذا يفرط هؤلاء الموظفون بسمعة بلدهم لصالح شركات لن يمثل مردودها المالي شيئا في اقتصادها الضخم! ولماذا تبدو بلد الحرمين التي ســـمعنا الكثير عن تقدمها وكأنها لا تستحق أن تكـــون دولـــة حضـــارية فـــي تعاملاتها مع ضيوفها؟ وهل صحيح أن هذا بمثابة تطفيش مـــن بعـــض الدول الخليجية حتى لا يطمع العرب في مزاحمة أهلها رغد عيشـــهم، وسبل رفاهيتهم، وكي لا ينكشف غطاء الثراء فينظروا بعيون حاســـدة وقلوب حاقدة، إن كلاما كهذا يجب أن يكون من السواليف ولكن لـــيس من البعيد أن تجده ممن هم في درجة من المسؤولية .. ومع أن المملكة أخذت الكثير من أمريكا إلا أن الإنسان إذا دخل أمريكا – وهـــي جنـــة الحالمين– وحصل على الإقامة فإنه ينعم بكل مميزاتها ويجد بها أمنـــه وحفظ حقوقه، طالما وقد حصل على حق الإقامة بطريقة شرعية، وبهذا أصبحت أميركا أميركا، رغم وجهها الشرير في خارج أرضها.

وكلما ظهر علينا الملل يأتي سعودي صاحب سيارة أجرة قصير نسبيا في يده العالقة خلف ظهره مفتاح السيارة يلعب فيه .. ثم يقتـــرب مني أكثر ويقف ورجل إلى الأمام.

– هاه .. ويش قلت يا ابن الحلال! بكـــم تبغـــون أوصـــلكم؟ .. سيارة حلوة ونظيفة بدل هالزبل اللي قاعدين فيه ..شاور نفسك كويس.

كنت أظن السعودي غنيا بالفطرة .. ولكن ذلك الراجل القصـــير نسبيا ظل يذكرني بفرزة (بوعان) والعودة .. وهي فرزة صاخبة فـــي اليمن!

جاء التعزيز بثلاث حافلات وتدافع الناس أيضا بصورة مأساوية ومقززة وبقينا، وعندها قال صاحبي للسائق الذي كان يدخل من يشـــاء بمزاجه:

– يعني المسألة مسألة مزاج تدخل من تشاء كأننا من غير تذاكر ونطلب منكم المساعدة بطريقة لله يا محسنين.

– هذا ليس لديه إلا عفش شخصي.

– ونحن ليس ليدنا سوى عفش شخصي.

– بقي لدي مقعدان .. ادخل.

– بل نريد ثلاثة مقاعد.

– عفوا لا يوجد سوى مقعدين.

وقد قصد زميلي بصاحب المقعد الثالث رفيقنا المصـــري الـــذي تعرفنا عليه في الطريق وقد كان هذا الربط خطأ؛ لأن وجهـــة حمـــدي غير وجهتنا، ولأن مصلحته أن يكون منفردا من أن يرتبط معنا.

ذهبنا نصلي وجاءت حافلتان أخريان ووجدنا أمتعتنا في الأرض بعد أن ركب حمدي في إحداها وتركنا . وقيل لبقية الركاب ومنهم نحن : انتظرونا إلى الغد، لكننا ذهبنا مغاضبين وسلمنا التذاكر للسائق ودخلنا عنوة ولم نلتفت لشيء سوى الدخول ووجدنا أماكننا وانطلقت الرحلـــة، كان سائق الحافلة باكستانيا من لبسه ولكنته.

مضت الحافلة تقطع الساحل البحري من ضبا باتجاه الجنوب في طريق طويلة ومملة، أما السائق فهو مبرمج بتعليمات واضحة:

– هيه سامع ...ما في كلام .. ممنوع إغلاق زر مكيف .. بعدين تغلق مكيف أنت في مشاكل كله ينام .. وأنا ينام وبعدين ما في استيقاظ يعني في موت .. معلوم صديق خلاص!.

لا داعي لمعرفة برطمة أخينا الباكستاني .. لم يكن الكثير يحتاج لنصائح ولا لمنومات فقد انخرطوا في النوم والمكيف شغال .. الســـائق فتح أم كلثوم:

–خلاص يناموا أصدقاء سوا سوا ما فيش مشكلة.

تخللت الرحلة بعض الاستراحات منها للصلاة وتناول العشـــاء، وكانت المطاعم منتشرة بطول الطريق وعمالها ووجباتها آسيوية زيـــت

على زيت إذا رأيتها قلت: اللهم حوالينا لا علينا، ولوحظ عدم انتشار الخدمات العامة في الاستراحات بما فيه الكفاية، ولكننا تغلبنا على متاعب الرحلة، لا شيء يدعو إلى القلق سوى الحج المخالف .. ترى أين نحن ذاهبون؟! هل إلى بيت الله أم بيت (الخال) أي السجن، هل سنعود إلى الأهل محلقين ومقصرين، أو مشلحين ومزفَّرين؟. وإذا تم إلقاء القبض علينا – لا سمح الله – هل سيكون ذلك قبل أداء مناسك الحج أم بعده؟ يعني لم نسلم من لذعات الخيال ومحاسبة النفس في وقت ظننا أننا في طريقنا إلى غياتنا النهائية، ولولا أنها غاية عبادية نبيلة لقتلنا الشيطان وساوس وهواجس.

هاهي الإطلالات الأولى لمدينة جدة الجميلة تتراءى لنا .. بسلامة الله وصلنا إلى مدينة جدة .. نحن في الميناء الأول للمملكة اللهم إنا نسألك خير المولج وخير المخرج.

بمعرفة د.أمين نزلنا عند أحد الأخوة اليمنيين المقيمين هناك إقامة دائمة .. وتفرغ لنا وأكرمنا .. ولأول مرة نتذوق الوجبة الصنعانية المتكاملة ونشعر بالانتعاش ولكنه بدا وكأننا عبء عليه في مسألة الحج .. كأنما حسب أننا نطمع في أن ينفِّذ هو (المغامرة) ويقودنا بسيارته إلى مكة، وطالما الأمر كذلك فقد أخذ يزهدنا في هذا الحج قائلا:

– لقد تأخرتم عن الفرصة المواتية كثيرا، والحكومة هذه المـــرة مشددة أشد التشديد، والذي يلقى القبض عليه قد يكون مصيره مجهولا، ومنهم من يودَع في السجن لشهور لا يعرف شيئا عن مصيره .. تسحب منه هويته وهاتفه .. ولا يسمح له بالتواصل مع أهله .. فلا يعرف أهله إن كان في عداد الأحياء أو عداد الأموات .. وإن بعضهم ليبقـــى فـــي السجن لا يدري لماذا سجن ولا متى سيخرج (!!) .. وقال: إن مثلنا لا يستحق أن يتعرض للإهانة .. والحج قائم على الاستطاعة، ومع ذلـــك الأمر يعود إليكم وفكروا في الأمر جيدا.

– قلت: جزاك الله خيرا على النصائح القيمة .. ولكن حقيقة بقي ثقتنا في الله .. لا بد أن نطرقها فإذا ردونا على أعقابنا نكون قد أعذرنا وعدنا إن شاء الله بأجر صدق النية، ويا ليت فقط تدلنا علـــى الموقـــف التي إلى مكة وهناك ندبر أمورنا.

– أما هذه فعليا.

إلى أم القرى مكة المكرمة

لقد قطعنا مسافة نحو 1000 كيلو من وسط القاهرة إلى جدة لـــم تعترضنا نقطة تفتيش واحدة، ولم يسألنا جندي واحد عن وجهتنا ولا عن هويتنا، التفتيش الذي ينتظرنا هو في الطريق إلى مكة وعلى مداخل مكة المكرمة .. يتصيدون المتسللين ويسلونهم من بين المفوجين كما تســل الشعرة من العجين .. اللهم الرأفة بضيوفك ..

لم تكد سيارة مضيفنا اليمني تصل موقف السيارات نحو مكة حتى لمَّ بها شباب سعوديون يبحثون عن متسللين إلى مكة؟؟ .. ما شاء الله!! هذا موسم الربح الوفير بالنسبة لهم، فتفاوضنا على ثلاثمائة ريال عــن الاثنين .. وضم إلينا أربعة آخرين بمبالغ أكبر، يعتمران الشماغ والعقال السعودي وأخذا يتحدثان باللهجة السعودية، ولكن الدكتور أمين بثاقــب نظره عرف أنهم من البلاد فقال :

– ما فيش داعي تتعبوا أنفسكم (أنتم يمنيين يعني يمنيين) فكــان أحدهم من إب والآخر من شبوة .. كان في مقعد السيارة الأمامي شاب سعودي عرفنا أنه خال السائق .. وكلا الشابين وسيمان ومعتنيان كثيرا بهنداميهما، وهو تصرف مقصود .. أما السيارة ففخمة وآخر موديل .. لقد استأجراها من إحدى الشركات .. الزجاجان الخلفيان عاكسان بحيث لا يرى خلفهما الركاب، انطلقت السيارة وكلما اقتربنــا مــن شــرطة

المرور ولجان التفتيش على التصاريح، بدأت الألسنة تلهـــج بـــدعوات التوسل ثم يرون السيارة الفخمة والشابين السعوديين الأنيقين فيتركوها تمر فمن شكلها الأنيق وشكل الشابين لا يبدو أنها تستعمل في غير النقل الشخصي .. وهكذا تجاوزنا تقريبا ثلاث نقاط حتى وصلنا إلى مـــدخل مكة، وهنا شعرنا باللحظات الفارقة إما الحج وإما دون ذلك ..فهـــاهي الملابس الشرطية الرسمية تكثر ..والازدحام يتسع، وانتظار التفتـــيش يطول.

هنا صرنا في اليوم الرابع من بداية الرحلة من القاهرة على بعد خطوات من بيت الله الحرام .. فما الذي حدث؟

تترآى أمامنا المدينة التي تربط السماء بالأرض وأضواء الحيـــاة العامرة بالإيمان أخذ السائق الماهر موقفا على اليمين وقال:

– تفضلوا حجاجا لبيت الله هذه مكة:

– صمتنا قليلا ثم قلت: يعني متأكد يا كابتن أننا الآن بمكة فهـــذه المرة الأولى التي نقصدها؟؟ قلت ذلك وكأنني غير مصدق ..قال:

- أنت في مكة يا ابن الحلال .. وصلتم خلاص.

الله .. إنه شعور جميل يتآلف مع خوالج الـــنفس أنســـانا رحلـــة المتاعب .. ورسم الابتسامة على الشفاه .. ولكن هل دخولنا حرما آمنا سينهي حالة الخوف وقلق المصير من حج علـــى الطريقـــة التقليديـــة

القديمة؟ هل سنخلع ثوب الرهبة من المخالفة .. بـــالعموم دعنـــا الآن نعيش لحظات اللقاء بمكة .. فما عداه لايهم أكثر من اهتمامنا بالبقعـــة التي عشنا معها كثيرا في مسيرة حياتنا الثقافية والعبادية ..لقد دخلنا مكة بسلامة الله وحفظة وتجاوزنا اللحظات الحرجة .. ولكن ثمَّ شيئا ينقصنا كحجاج، لقد دخلنا مكة لا بلباس الإحرام هكذا نصحنا بعض العـــارفين بمناسك الحج، وقال: تجزؤكم الفدية وهو ما تم، وذلك تجنبا للوقوع في فخ حراس المنافذ وليتنا لم نفعل فقد دخل زمـــلاء آخـــرون محـــرمين وملبين من الميقات بحراسة العناية الإلهية.

هذه مكة المكرمة

إن أي إنسان مسلم تطأ قدمه أرض مكـــة لأول مـــرة لابـــد وأن يخالجه ذلك الشعور بالرهبة .. وهالة المشاعر المختلطة بقدسية المكان ..بالحب بالعظمة .. هنا المكان الذي سجلت فيـــه أول قصـــة علاقـــة الأرض بالسماء .. وحط فيها أبو الأنبياء رحله .. واستقر فيها إسماعيل .. ونزل روح القدس واختط بناء البيت ملائكة من الملأ الأعلى .. ثم في مكة انتهت فصول الرسالات السماوية .. ولمكة أسماء أخرى هـــي (بكة) و(البلد الأمين) .. و(أم القرى).

إذن نحن الآن نطأ بأقدامنا على تراب أقدس مدينة علـــى وجـــه الأرض، فيها مسجد الصلاة فيه بمائة ألف صلاة وأفضل بيت في الدنيا هي الكعبة المشرفة، فليس على بقاع الدنيا بقعة أوجب الله على كل قادر

السعي إليها من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر انحلت عوده وأنهكت قواه الفيافي وقطع المفازات.

نحن الآن نمشي في عرصات كانت قبل 1400عام مسرحا لأحداث جسام .. غيرت وجه التاريخ، وأحدثت في الأمة الأمية انقلابا تاما في الأفكار والتصورات، لقد استمر فيها الصراع بين الحق والباطل لمدة لم تقل عن ثلاثة عشر عاما .. انتهى بعدها تأريخ الوثنية .. ليبدأ تاريخ التوحيد قرونا ولا يزال .. يصدح صوت التوحيد من جنباته في كل يوم خمس مرات .. وهاهنا نتذكر الفئة المستضعفة بلالا، وعمارا، وصهيبا، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وهي في أول عهدها بالإسلام، وقد التفت حول نقطة الضوء المشعة وسط الظلام، وقد انسلخت من ربقة الشرك إلى غير رجعة، ومتحفزة إلى بزوغ الفجر القادم .. كانت هذه الطليعة المؤمنة لضعفها وقلة حيلتها وسط ظلام الشرك الذي يلف جنبات الكون تخشى أن يتخطفها الناس ..كانت طلائع التحرر من رقبة العبودية للأحجار تتعرض لألوان الابتلاءات، ثم تدور الأحداث فما يلبث أولئك الضعفاء أن يقودوا العالم، وما يلبث الأقوياء أن يغيبوا عن وجه المشهد وتسكت أصواتهم ويسقط صوتهم وسطوتهم .. وكانت العاقبة للمتقين.

ثم تأملت في سر اختيار هذا المكان ليكون منطلق الرسالة الخاتمة، وهو لا تتوفر فيه مقومات النهوض المادية وقد وصفه أبو

الأنبياء إبراهيم – عليه السلام بأنه (واد غير ذي زرع)، ولـــيس مـــن البقاع التي شهدت حضارة إنسانية وتأريخا حافلا بأنشـــطة العمـــران والتمكين، فوجدت لذلك سراً عجيبا .. وهو أن قوة هذا الدين كامن فـــي ذاته لا في عامل من العوامل الخارجية، أي: ليس في كثرة المال فيقال نتاج غنى ورغد عيش .. ولا في قوة سلطان فيقال نتاج هيمنة وبســـط نفوذ، ولا في أرث حضاري فكري فيقال هبَّة من الهبَّات الفكرية التـــي شهدها المكان .. بل كل الظروف المحيطة لا تدل على وجود أي رافد يمكن أن يعزى إليه فضل ترسيخ دعائم هذا الدين، حتى صناديد قريش ورجالاتها لم يكونوا له عونا بأي حال .. وربما لو استقبلوه بالنصـــرة والتأييد لقيل إنه دين قريش استخدمت نفوذها في العرب وأرغمتهم على دين هو من بنية أفكارها.

***

قصدنا بادئ ذي بدئ حي الجميزة .. الذي يقف فيه برج الوقـــار وتنزل فيه البعثات اليمنية .. والتي تشرف على الحج فقـــد كـــان عـــم الدكتور أحد أعضاء البعثة الطبية فدعاه إلى النزول عنده ، ولأننا غير مفوّجين ضمن وكالات وإنما هو حج فردي، ولأن هذا هو أول عهد لي بمكة وشعابها والحج ومناسكه فقد كان ما من بد أن أنزل ضـــيفا مـــع الضيف .. وفعلا افترش عمه الأرض ووجدنا سريرين ووضعنا أمتعتنا ثم قصدنا المسجد الحرام لأداء طواف القدوم.

اللقاء ببيت الله العتيق

وأنا في طريقي إلى البيت الحرام لـــم أدر كيـــف سأســـتقبل أول إطلالة على مهوى الأفئدة. أما شعوري فهو شعور العبد الآبق العائـــد إلى كنف مولاه، ولكن هل سأقابله بقلب غلـــيظ وعينـــين متحجـــرتين، خشيت من الجفاء .. وسوء اللقاء .. وجمود العواطف .. يا إلهي لطالما تمنيت أن أسكب العبرات في حضرة بيت الله المعظم .. فهل مثل هـــذا سيحدث أم ستخذلني عواطفي؟.

توضأنا في الحمامات لأن الطهارة شرط لصحة الطواف، وليس كذلك السعي وكان ذلك قبل أن نرى شيئا من الحرم الداخلي وشربنا من مشارب زمزم المنتشرة .. ودخلنا من الجسر المطل على المسعى "بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، اللهم افتح لي أبواب رحمتك" وقبل رؤية الكعبة أطليت في طريقي من الجسر فوق الصفا على الساعين بين الصفا والمروة ورأيت المنظر المهيب جموع كبيرة من البشر المنتظمة في الهدف والاتجاه تبدأ سيرا من الصفا وتنتهي بالمروة وسط هدير من الدعاء والرجاء .. وقد رفعت الأكف وشخصت الأبصار إلى الســـماء بأثوابهم البيضاء .. ورؤوسهم الحاسرة وصدورهم العارية، فلم أتســـول الدموع بل صرت أتوسل أن تكف وانخرطت في بكاء .. ثـــم مضـــينا ونزلنا من المصعد الفضي إلى صحن الكعبة .. ورأيت الكعبة.

رأيت البيت الحرام الذي أتحرى استقباله كل يوم خمس مـــرات لكي تصح صلاتي فلي فيه قصة حياة ومســـيرة عبـــادة .. فـــزادت العبرات في الانسكاب فالكعبة هي بيت الله المعظم وقبلة المسلمين التي ارتضاها لعباده، ولعل تسميتها كعبة لأنها مربعة وقيل لعلوها ونتوئهـــا أي ارتفاعها وسماها الله (البيت الحرام) لحرمتها و(البيت العتيـــق) لأن الله أعتقه من الجبابرة أو لقدمه أو لأنه لم يُملك قط، وهـــي أول بيـــت وضع للناس تكسى في كل عام بكسائها الجميل الذي يعمل على صنعه مهرة متخصصون في مصنع خاص يعملون فيها طـــوال العـــام تبلـــغ تكلفتها نحو 15 مليون ريال سعودي وهي من الحرير الخالص .. أمـــا ارتفاعها فيبلغ أربعة عشرا متر وقد كان أول من بناها ورفع قواعـــدها من بعد بناء الملائكة لها أول مرة هو إبراهيم –عليه السلام– بـــركنين هما الركن اليماني والحجر الأسود .. وأما الركنان الآخران فلم يكونـــا ركنين على عهد إبراهيم عليه السلام بل كانا على شكل نصف دائرة .. وهو البناء المكشوف الذي يسمى بالحِجْر ولذا فالحجر جزء من الكعبة، ومن صلى فيه فكأنما صلى داخل الكعبة .. ولا يصح الطواف داخلـــه لأنه داخل الكعبة.

والسبب في عدم بقائها على النمط الإبراهيمي هو أن قريشا لما أرادت إعادة بنائها تعاهدوا أن لا يدخل في تكلفة بنائها مال حرام فلـــم يكتمل المال الكافي من الحلال، فحطموا الحجر وبنوا البيت على شكل مربع، وعندما حكم عبد الله بن الزبير المدينة والحجاز أعاد بناءها على

النمط الإبراهيمي .. عملا بقول النبي – صلى الله عليه وسلم – لعائشة رضي الله عنها "لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لأعـدت بناءهـا وأدخلت منها الحجر" وبعد أن قُتل ابن الزبير – رضي الله عنهمـا – على يد الحجاج وهدمت الكعبة بالمنجنيق، أعاد الحجاج بناءهـا علـى النمط القرشي مخالفة بذلك لابن الزبير، ولما جرت محاولة أخرى للبناء على النمط الإبراهيمي تدخل العلماء لمنع ذلك، مناشدين الخليفـة أن لا يجعل البيت مسرحا للأهواء فبقيت على ما هي عليه الآن.

بدأنا الطواف من أمام الحجر الأسود وهو حجر مثبت في الركن الجنوبي الشرقي للكعبة على ارتفاع متر لنطوف طواف القدوم سـبعة أشواط وهو ركن من أركان العمرة للمعتمر ويسن للطائف الرمل فـي الثلاثة الأشواط الأولى والرمل هو : الإسراع في المشي مـع مقاربـة الخطى ويسن له الاضطباع وهو الكشف عن ذراعه الأيمن وهذا هـو المشهد الذي ذكرنا بعمرة القضاء التي اعتمر فيها النبي – صـلى الله عليه وسلم – العمرة التي رجع عنها من الحديبية بعد أن حالت قـريش دونه وأصحابه وكان رجوعه بناء على صلح الحديبية، وفي السنة التالية بناء على الصلح دخل مكة معتمرا وكانت سنة الاضطباع والهرولـة، وهو أن قريشا بدأت تغمز في الصحابة وهم يطوفون قائلـة إنـه قـد أصابهم الوهن من وباء المدينة، فقال رسول الله لأصـحابه –رحـم الله امرئا أراهم اليوم من نفسه قوة– وحسر عن ذراعه وهرول في السعي وصارت سنة.

جعلنا الكعبة عن يسارنا .. هانحن نستقبل الحجر الأسود ونشير إليه بأيدينا لصعوبة الوصول إليه : "بسم الله، الله أكبر " وليتنا نستطيع الوصول إليه فنقبله .. الله ما أجله من موقف وأعذبها من أصوات وهي تلهج بالدعاء كل يدعو بما شاء .. ها نحن نسير بين الركن اليماني والحجر الأسود (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ثم هاهو الركن اليماني ولو استطعنا الوصول إليه لكان من السنة أن نستلمه أي نمسحه بأيدينا قائلين " بسم الله، الله أكبر" .. إن الطواف نوع من العبادة ينخرط فيه العبد مع منظومة البناء الكوني بدءا من الذرة وما تحتها وانتهاء بالمجرة وما فوقها .. ففي الذرة يوجد طواف لأجزاء الذرة حول مركزها بنفس اتجاه الطائفين أي عكس عقرب الساعة وكذلك الأقمار تدور حول الكواكب بنفس الاتجاه، والكواكب تدور حول الشمس بنفس النظام .. والمجموعات الشمسية تدور حول مركز المجرة، وهذا الدوران يمثل استسلاما كونيا للناموس الإلهي الذي وضعه لحفظ توازنها وهو نوع من أنواع الاستسلام للخلق قال تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس : 40] ثم يرى العلماء أن المجموعات الشمسية تسير في الفضاء باتجاه أمامي مستقيم وفي شكل متعرج هابط وصاعد، وقد فسر علماء الشرع هذا الهبوط والصعود بعبادة الركوع والسجود .. فقد ورد في البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر حين غربت الشمس "تدري أين تذهب؟" قلت الله ورسوله أعلم قال : " فإنها

تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [يس : 38] فهي من حيث كونها مستقرة مكانها تجري مع المجرة.

***

ارتباط المناسك بحركة الزمن

وهكذا تجد أن من أجلِّ الأمور التعبدية التي تسترعي الانتباه في الحج هو ذلك الارتباط بين حركة الزمن المضبوط بطلوع الشمس وغروبها وبين انتقال الحجاج بين المشاعر، فإذا طلعت الشمس كان التحرك من منى إلى عرفة في اليوم التاسع، وإذا غربت يكون التحرك من عرفة .. إلى مزدلفة وقبل طلوعها يدفع الحاج من مزدلفة لرمي جمرة العقبة في اليوم العاشر، ويكون الرمي من وقت طلوع الشمس حتى الزوال، وفي أيام التشريق يكون الرمي من بعد زوال الشمس وصلاة الظهر إلى الليل، ومن أراد أن يتعجل في اليوم الثاني عشر، وإذا غربت الشمس وهو في منى لزمه المبيت ورمي الجمرات في اليوم الثالث عشر – كما سيأتي معنا – على أن هذا التوقيت المرتبط بحركة الزمن ليس خاصا بالحج بل ومرتبط بجميع العبادات، فهل هو تناغم مع حركة الكون التي عبَّدها الله وسيرها بقوانين حركة لا تشذ عنها كما قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [النحل : 12] وهذا التسخير بالأمر عبادة واستسلام، وربط الحركة العبادية للإنسان بحركة الشمس كأنه انتظام في سلك واحد هو الانقياد لله، فتكون جامع الصلة بين عبادة المخلوقات لخالقها هي واحدية الحركة وفق نواميس الله وقوانينه قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ

وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) [الحج : 18].

وهكذا اتحدنا بسيل متدفق يلتف حول محور الارتكـــاز، ورمـــز التوحد وهو البيت الحرام الذي يشير العلم الحديث أنه يقع وسط مركز اليابسة .. أرى أمامي الآن لوحة فنية متداخلة بألوان وأحجـــام جميـــع البشر .. لقد التحمت الجنسيات في هوية دين واحد، والتقت اللغات على مفردات لغة واحدة وهي الدعاء والذكر .. وأسمع دوي أيقـــاع واســـع متداخل منه ترديد الدعاء الجماعي ومنه الفردي الكل منتظم في ســـلك المشاعر والمناسك ..إنه إيقاع فريد وشعور جميل ومنظـــر توحيـــدي أجمل ..إنه المنظر الذي غير نظرية مالكوم إكس الـــزعيم الأمريكـــي المسلم الذي روج لنظرية تفوق العرق الأسود كرد فعل على عنصرية الرجل الأبيض .. فلم يجد في الإسلام متسعا لمثل هذا الفرز وكان حجه عام 1964م هو الدرس العملي على ذلك فوجد الزنجي إلـــى جانـــب الأبيض يلتحمون في عبادة رب واحد .. لا يتأفف أحدهما من الآخـــر وقد قال في ذلك : "رأيت بأن الرجال ذوو البشرة البيضاء أخـــوة حقـــا أكثر من أي شيء آخر في الحج .. وكانت تلك بداية تعديل جذري في وجهة نظري الكاملة حول الرجال "البيض" وكان هناك عشـــرات آلاف من الحجاج ومن جميع أنحاء العالم، من ذوي العيـــون الـــزرق إلـــى الأفريقيين ذوي البشرة السوداء إلى من هم من شرق آسيا .. لكننا كنـــا جميعا نشارك في نفس الطقوس بروح الوحدة والأخوة .. فأيقنـــت أنـــه

على أمريكا فهم الإسلام لأن هذا الدين الواحد هو الـــذي يمحـــو مـــن مجتمعنا مشكلة التعصب للجنس والتفرقة " إن هذا المزج العرقي مـــن أبرز معاني الحج إنه يحقق الوحدة الشعورية والوحدة العضـــوية بـــين المسلمين على اختلاف أجناسهم ..وهاهنا لن تفاجأ بوجود أجانب وسياح لأخذ الصور السياحية فمكة ممنوعة على غير المسلمين إذ علـــيهم أن يكون معهم جواز الدخول إلى مكة وهو الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مثلما أننا نملك جواز الدخول إلى أي مكان وهو الاعتـــراف ببقية الأنبياء والمرسلين.

لم ندر إن كنا أكملنا السبعة أشواط أم هي ستة سنبني على الأقل ونكمل .. أحسسنا أنا والدكتور الزقار أننا نعتصر وسط الجموع لنطرد ما علق بنا من أدران الذنوب ونغسل بدموع الرجاء خطايا الـــزمن .. هذا هو مقام إبراهيم (.. وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..) [البقرة : 125] اتفق خلفنا في الطواف مجموعة حجـــاج إيـــرانيين يصـــرخون (الحمد لله الذي جعلنا من أتباع أهل المذهب الحق وجعلنا من أشياع آل نبيه) أدركت أنها لغة الدفاع عن النفس، فهم يعطون أتباعهم حقن الثقة بالنفس كونهم يتلقون سيلا من التهم بالخرافة ..بعد فراغنـــا يســـن أن نصلي ركعتين خلف المقام وبعد أن تيسر لنا ذلك قرأت فـــي الركعـــة الأولى سورة الكافرون وفي الثانية سورة الإخلاص كما تقضي بـــذلك السنة ..

يقع المسعى أمام الحَجر الأسود وعلى المعتمِر بعد طواف القدوم أن يخرج إلى المسعى للسعي بين الصفا والمروة .. سنصل إلى الصفا بمصعد فالسعي أحد أركان العمرة ولا يشرع إلا في عمرة أو حج .. أخذ المسعى شكله الطولي المتميز في بناء الحرم .. ويبلغ طوله (394.5) مترا بينما يبلغ عرضه (40) مترا، ومعدل إجمالي عدد الأشواط للسعي 2761.5 مترا .

والصفا: جبل صغير في أصل جبل أبي قبيس يبعد عن الكعبة نحو مائة وثلاثين مترا .. والمروة أكمة صخرية تبعد عن الكعبة ثلاثمائة متر.

ولنبدأ بما بدأ الله به لنبدأ السعي من الصفا إلى المروة (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) [البقرة : 158] .. يلاحظ أن الصفا قد وضع على ارتفاع بسيط حتى إذا علاه الحجاج والمعتمرون استقبلوا الكعبة ورفعوا أيديهم فحمدوا الله وأثنوا عليه ودعوا .. ثم ينزلون من الصفا إلى المروة مشيا، فإذا بلغوا العَلم الأخضر ركضوا ركضا شديدا، فإذا بلغوا العلم الأخضر الثاني مشوا كعادتهم إلى أن يصلوا إلى المروة، يرتقون عليه ويستقبلون القبلة ويدعون .. ثم ينزلون من المروة إلى الصفا شوط، ورجوعهم من المروة إلى الصفا شوط آخر

***

قصة السعي بين الصفا والمروة

قصة أمنا هاجر – عليها السلام– وحكايتها ما سبق ذكره أن إبراهيم الخليل ترك هاجر وابنها إسماعيل عليهم السلام في مكة وهي واد غير ذي زرع لا ماء فيها ولا نماء .. قال الله على لسان خليله: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ..) [إبراهيم : 37] " فتركهما عند البيت .. عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد .. ووضع عندهما جِرارا فيها تمر .. وسقاء فيه ماء .. ثم قفّى منطلِقا فتبعته هاجر فقالت:

– يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له:

– آلله أمرك بهذا؟ قال:

– نعم. قالت :

– إذن لن يضيعنا .

ثم رجعت هي وانطلق إبراهيم – عليه السلام – حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .. ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال : (رب إني أسكنت من ذريتي ..) الآية.

ثم إن هاجر – عليها السلام– جعلت ترضع ابنها وتشرب مما في السِّقاء حتى إذا نفد، عطشت وعطش ابنها .. وجعلت تنظر إليه يتلبط لشدة الظمأ .. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه .. فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم ترى .. فهبطت حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزته، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا .. فلم ترى ففعلت ذلك سبع مرات، ولذلك سعى الناس بينهما سبعا فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه تريد نفسها .. ثم تسمَّعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه حتى ظهر الماء .. فجعلت تحرضه وتغرف منه في سقائها .. وهو يفور فشربت وأرضعت ولدها وقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه .. وإن الله سبحانه لا يضيع أهله فتلك هي قصة السعي.

وهنا وقفة مهمة فبمنظارنا القاصر قد نقول إن ما فعله خليل الله لا يقره مبدأ إنساني .. ولا شيم الرجال .. ولا منظومة قواعد الأخلاق .. إذ كيف يترك رضيعا وأمه في واد يفتقر إلى كل مقومات البقاء .. ثم يعود قافلا إلى زوجته الثانية، دون أن يآذنها حتى كلمته هي .. نعم إنها قصة غريبة بمعيارنا المادي، ولكنها تفرز خصائص الإنسان المؤمن .. الصبر على الابتلاء .. حسن الظن بالله .. اليقين في أن الخير هو فيما اختاره الله .. امتحان صبر ورضى وثقة هاجر بربها ..

وكانت دعوة إبراهيم لهما عجيبة مرضية كافية وافية قال (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات) قال (فاجعل أفئدة) ولم يقل أناسا، والأفئدة موضع الحب والود ولين الجانب، وكأن القلوب هي المأمورة بالبيت الحرام وأهلها قال (تهوي إليهم) ولم يقل تأتي بل هي تهوي هويا، تهرول بحب وشوق، وذلك ما حدث فبعد أن شربت وأرضعت ولدها .. "وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية (وهو ما ارتفع من الأرض) تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم (قبيلة من قحطان من اليمن) مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا (الذي يحوم على الماء) فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فبعثوا رسولهم فنظر، فإذا هم بالماء، فأتاهم فأخبرهم ، فأتوا إليها..فقالوا:

– أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ ، قالت:

– نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء.

– قالوا: نعم.. قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم إسماعيل ، وهي تحب الأنس ، فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل

يطالع تركته (يتفقد حال ما تركه هناك) فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت:

– خرج يبتغي لنا (أي: يطلب لنا الرزق) ثم سألها عن عيشـــهم وهيئتهم ، فقالت:

– نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال:

– فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه (كناية عن المرأة) فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا ، فقال:

– هل جاءكم من أحد؟ ، قالت:

– نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك ، فأخبرته ، وســألني كيف عيشنا ، فأخبرته أنا في جهد (وهي المشقة) وشدة، قال:

– فهل أوصاك بشيء؟ قالت:

– نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول: غير عتبة بابك ، قال:

– ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، الحقي بأهلك ، فطلقهـــا ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعـــد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت:

– خرج يبتغي لنا ، قال: كيف أنتم؟ ، وســألها عــن عيشــهم وهيئتهم ، فقالت:

– نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله – عز وجل – فقال:

– ما طعامكم؟ ، قالت:

– اللحم ، قال:

– فما شرابكم؟ ، قالت:

– الماء ، قال:

– اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال رسول الله – صــلى الله عليه وسلم –: ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم ، دعا لهم فيــه ، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال:

– فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال:

– هل أتاكم من أحد؟ ، قالت:

– نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليــه ، فســألني عنــك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ، فأخبرته أنا بخير قال:

– فأوصاك بشيء؟ ، قالت:

– نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابـــك ، قال:

– ذاك أبي ، وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة ، قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولـــد بالوالد ثم قال:

– يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر ، قال:

– فاصنع ما أمرك ربك ، قال:

– وتعينني؟ ، قال:

–وأعينك ، قال:

– فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا – وأشار إلى أكمة (المقـــام، وفي رواية إبراهيم بن نافع) مرتفعة على ما حولها – قال: فعند ذلـــك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة ، وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر (المقام) فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان: (ربنا تقبل منـــا إنك أنت السميع العليم)" (ينظر الجامع الصحيح للسنن والمسانيد).

لقد أكرم الله هاجر بشرف الابتلاء على المشاركة بتهيئة أول بيت وضع للناس وصبرت على العزلة الإجبارية وبمصـــطلحنا المعاصـــر

النفي الإجباري ولكن في مرضاة الله .. وصبرت على قلة المؤنة وعلى الظمأ الذي اجتاح رضيعها وجعلت تسعى في غير ما تسخط ولا يأس وبسبب هذه الخصائص التي توفرت لهاجر جاءها من وضع نفسه تحت إرادتها وإدارتها قبيلة بأكملها لم تصادر موردها وهي وحيدة عاجزة بل صارت هي المتصرفة فيه وهم يخطبون ودها، وآنسوها وزوجوا ابنها .. وفوق ذلك فضل عظيم حيث جعلها الله ضمن مناسك عبادته إلى يوم الدين .. لا يقف سيل الخير المتدفق لحظة واحدة وهو يصب في خانة حسناتها، حيث جعل الله السعي بين الصفا والمروة سنة جارية، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين، ودخلت هاجر بصبر ساعة في النسك التعبدية تكريما وتخليدا لذكر هذه المرأة المؤمنة وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " اسعوا فإن أمكم قد سعت قبلكم". ومكرمة عظيمة أخرى وهو ذلك الماء المبارك المتدفق أبدا يستسقي الناس منه ويعود إليها ثواب كل قطرة كحق محفوظ لصاحب السبق في سبب الإيجاد، هذه المعجزة الإلهية يشرب منه الملايين في وقت واحد ويغتسلون ويحملون منه إلى جميع أنحاء المعمورة .. وما من مكان إلا ووصل إليه ماء زمزم، وليس لمجرد الارتواء بل إن له أغراضا أخرى يذكرها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ماء زمزم لما شرب له، من شربه لمرض شفاه الله أو جوع أشبعه الله أو لحاجة قضاها الله".

هانحن نكمل السعي بين الصفا والمروة وماذا بعد؟ .. إذا أتـــم المعتمر سعيه سبعة أشواط حلق رأسه أو قصَّر وهذا في حق الرجل .. أما المرأة فيسن لها أن تقصر من كل أطراف شـــعرها قـــدر أنملـــة، ويفضل أن يكون التقصير شاملا جميع جهات الرأس .. وبهذه الأعمال تمت العمرة ثم بعد ذلك يحل منها تحللا كاملا .. إذا كان حاجا متمتعـــا فيفعل ما يفعله المحلون من اللباس والطيب وإتيان النساء وغير ذلك .. حتى يأتي اليوم الثامن (يوم التروية) من ذي الحجة فيحرم بالحج.

***

التمتع بعبق الروح وغسل أدران علائق النفس.

اخترنا حجنا تمتعا ..تبقى أمامنا أيامٌ إلى بداية الحج .. إنني الآن أتقلب في مبنى الحرم المكي لغسل النفس من هموم الحياة .. والغوص في بحار من السكينة والأمن .. (فمن دخله كان آمنا) .. وإنه لبناء فخيم .. مترامي الأطراف .. واسع الأنحاء له تسع مآذن .. تبلغ عدد أبوابه (155) بابا .. ومساحته الإجمالية تبلغ (266168) مترا .. وطاقته الإجمالية بما فيها الساحات المحيطة به حتى عامنا هذا أكثر من مليون مصلٍّ حسب معلومات (دليل الزائر للمسجد الحرام)، ولكن على سعته لا يبدو أنه قادر على مواجهة الأعداد المتزايدة .. فلا يزال الحرم بحاجة إلى توسعات خرافية لأنه مسجد لمليار وخمسمائة مليون مسلم .. وإن مئات الملايين لتتوق لأداء الشعيرة وإسقاط فريضة الحج عند توفر الاستطاعة فلا ينبغي أن يكون المكان مشكلة عبادية تحول دون أدائها .. على أن للعلماء فتواهم في المسألة ..ولظروف التنظيم والانسيابية مقالة تسمع.

تم تأمين مكان لزميلي د.أمين، وبدأ البحث عن توفير مكان آخر لي، كان مبيتنا في البعثة على الأقل بالنسبة لي أمرا طارئا ولا تسمح ظروف الضيافة بأكثر من ليلة، فكان عليّ في اليوم الثاني وهو يوم الأحد الموافق لـ5 من ذي الحجة أن أبحث عن طريقة للمبيت وبدأت أجد أن المسألة في غاية الإشكالية بما أنه لا يوجد ترتيبات مسبقة مع مقيمين .. لا أراه سهلا على الإطلاق الحج الفردي .. فمن يحج كحجنا

من الصعب أن يجد مكانا يأويه، لأن الفنادق محجوزة وبأسعار تفــوق الخيال .. فالغرفة قد تزيد على الستة عشر ألف ريال ســعودي فيهــا أربعة أسرة على أيام الحج .. من حيث المبدأ لم أجد خوفا من مشــقة النوم في الحرم لأنني جئت وعندي أن الأراضي المقدســة هــي أرض عبادة وتفرغ .. وصحيح أن وجود مكان يأوي إليه الحاج لتغيير ملابسه وأخذ حمام دافئ ثم قسط من الراحة أمر هام، ولا بديل عنه ويعين على استئناف العبادة بنشاط ولكن عندما لا يكون ذلك موجودا فلماذا لا نكون ضيوفا على الله .. كنت أحب حجا مغامرا من هذا القبيل فيه الكثير من المتاعب والكثير من الحسنات هكذا بدا لي الأمــر .. غيــر أن أحــد العارفين بشئون الحج وهو الأستاذ /محمد منصور عمر هــاتفني مــن اليمن ولم ينصح بوضع كهذا قائلا:

– إن عدم وجود مكان أعود إليه سيكون متعبا جــدا ثــم رتــب سريرا في فندق الفردوس تشاطرت فيه الوقت أنا وعزيــزي/ محمــد صالح راجح أحد المشرفين على إحدى وكالات الحــج وكلاهمــا مــن منطقة (مسار– حراز) وقد جاءني محمد صالح إلى المســجد الحــرام وذهب بي إلى الفندق وفي الفندق سألني:

– هل طفت بالبيت؟.

– نعم.

– هل استلمت الحجر الأسود فإنه يشهد لمن استلمه يوم القيامة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال النبي – صـــلى الله عليـــه وسلم – "ليبعثن الله الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق" وقال : " إن مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحطان الخطايا حطا".

–لا. لم استلم أيا منهما.

– فهل وصلت إلى الملتزم الواقع بين الحجـــر الأســـود وبـــاب الكعبة؟ وفيه يشرع إلصاق الخد الأيمن والصدر والـــذراعين والكفـــين والدعاء فإنه مكان يرجى فيه استجابة الـــدعاء ..وأردف: وعنِّـــي مـــا دعوت الله في الملتزم إلا استجاب لي كل ما دعوت.

– سبحان الله إذن ما جئنا نعمل؟ لكن كيف الوصول إلى الملتزم وإلى الحجر الأسود وكيف يمكن شق تلك الجبال المتراصة من البشر؟

وكالعادة ذهبت لأطوف بالبيت .. لم أفكر قط في مدافعـــة أحـــد لأبلغ جدار الكعبة، ولا التسبب في أذى أحد من أجل استلام الركنين أو الوصول إلى الملتزم فرب فضيلة جرَّت إلى إثم .. لقد كـــان الطـــواف على أشده من الزحام .. كتلة بشرية تتماوج وليس لفرد فرصة الاختيار بل هو مقود بسيل بشري إلى حيث تنتهي أشواط سعيه، وبينما أنا أنظر إلى الركن اليماني وقد قربتني منه إحدى الموجات البشـــرية مـــن دون اختيار قلت يا رب هل تكرمني باستلامه؟ .. وفجأة برزت فُرجة بـــين

الصفوف وبرزت حاجَّتان عجوزتان من إندونيسيا منحنيتان بجسميهما الرفيع جدا وطولهما الذي لا يتجاوز نحو 120 سم يسرعان الخطى بحماس صوب الركن اليماني .. مستغلتين تلك الفرجة التي حدثت .. فقلت وهل يصرن أكثر مني حرصا؟ .. تبعت مساقهما .. فاستلمت الركن اليماني ثم واصلت السير بمحاذاة جدار البيت فوصلت إلى الحجر الأسود واستلمته بصعوبة وحاولت تقبيله ولكن كان التدافع جنونيا فخفت من التسبب في إيذاء أحد .. ثم كان معي محفظة وسطية فيها كل نقودي ووثائقي مشبكة بخطاف بلاستيكي لا يؤمن أن ينقطع وتقع المشكلة فاتجهت بدلا من ذلك نحو الملتزم وأدركته وألصقت الخد الأيمن والصدر والذراعين ودعوت الله بما شاء أن أدعو .. وأمسكت بالباب وكان ذلك من توفيق الله ..

وبالفعل لقد دعوت الله بدعاء خاص كان تحقيق بعضه من رابع المستحيلات عندي إلا أن تدخل العناية الإلهية وتحدث المعجزة .. (وفعلا تحققت بفضل الله) وكان من ضمن ما دعوت: اللهم استخدمني لطاعتك .. اللهم آمين ..

***

في كل صلاة فريضة ستجد الناس في الحرم تخرج من غرف الفنادق قبل الفريضة بنحو نصف ساعة بالأقل، وهناك من لا يغادر المسجد بين الصلوات المتقاربة لأن هذه الموجات البشرية التي قصدت

هذا البيت من كل فج عميق تحرص على القرب منه في صلاتها ولربما فات الحاج المكان الملائم فلا يظفر بغير الأماكن البعيدة من صوح المسجد الداخلي .. وهذه لقطة من مدوناتي قبل اصطفاف الناس لصلاة الفريضة تتتشتت أحوال الحجاج في انتظار المثول بين يدي ربهم، فهم بين قائم وقارئ للقرآن أو آخذ مع من بجواره حديثا جانبيا حتى يحين موعد إقامة الصلاة فإذا ما أذن المؤذن أدى الناس ركعات الصلاة الراتبة وإذا ما أقام الصلاة تغير المشهد تغيرا سريعا ومنتظما وهادئا وأخذت الملايين صفوفها في شكل دوائر دقيقة التنظيم .. دقيقة الحرص على وضع المنكب بالمنكب والأعقاب إلى الأعقاب، دونما تدخل من الشرطة ولا صراخ من المنظمين ولا تداخل الأصوات ولا عراك بين اثنين كل هذا يحدث في دقيقة واحدة تقريبا، ترى لو كان هذا في ملعب رياضي أو حتى مظاهرة تنظيمية مليونية هل سنشهد مثل هذه الاستجابة والإنابة والهدوء والخشوع والحب للمثول بين يدي الله بشكل آلي وسريع ..الله ما أعظمه من مشهد وما أدلَّها من لحظات تمنيت لو أن لهذا انعكاسا على واقعنا الاجتماعي والسياسي في آلية الانتظام وسرعة الاستجابة ولين الجانب وحسن التفاهم ودافعية الرغبة الذاتية في استقامة الأداء لكان وضعنا شيئا آخر تماما.

بدء مناسك الحج

في صبيحة أول أيام الحج الثامن من ذي الحجة وهو يوم التروية اغتسلنا في الفندق، وقلمنا الأظافر وسوى ذلك وتطيبنا قبل الإحرام، واستحباب ذلك لأن الدخول في الإحرام يُحظر إزالة الشعر من جميع البدن بحلق أو غيره بلا عذر، ويحظر قص الأظافر أو خلعها من اليدين أو الرجلين بلا عذر .. ويحظر تغطية الرجل رأسه بملاصق كالعمامة والشماغ والطاقية .. كما يحظر لبس المخيط عمدا ..ويحظر استعمال الطيب ..وكذا مباشرة النساء .. ويحظر على المرأة لبس النقاب والقفازين. والملاحظ أن غالبها معاني جميلة وتكميلية من زِينة الحياة حث عليها الإسلام في غير وقت الإحرام .. والسِّر في حظرها وقت الإحرام – والله أعلم – هو أننا أمام حدث عالمي يضم كل الجنسيات والأعراق تختلف معها أزياؤهم وأشكالهم، فيه من كل فئات المجتمعات الأغنياء والملوك والفقراء، فلاشك أن موسم الحج سيكون بدون منع الأزياء مجالا للتمايز العرقي والتمايز الطبقي، فنزعت مظاهر هذه الزينة عن الإنسان مؤقتا ليتجرد من مظاهر التمايز التي تورث الغرور، فيقلل ذلك من تضخيم الأنا وتتحقق فيه معاني الاستسلام لله الملك، إنه ترويض للنفس على الطاعة غير المشروطة ليكون رضاه بما قبض الله عنه حيث قبض، كرضائه بما بسط له حين بسط ..فالناس في هذه الشعيرة على موعد مع لون واحد أبيض يرمز للنقاء والطهر .. وقطعة واحدة رخيصة الثمن تغطي بعض الجسم وتترك الباقي مكشوفا بلاغطاء كرمزية على التواضع وحالة الافتقار والتجرد عن مصادر

الغنى الذي يعطي صاحبه متسعا للتصرف في فنون الجمال وارتياد من عن له من الثياب، كل ذلك طاعة لله ..فالذي منحه وسائل التجميل والتطيب هو الذي ينزعها عنه في الحج تعبدا بالرضا والاستسلام ..مثلما أن الذي منحه ألوان الطعام والشراب هو الذي ينزعها عنه في رمضان .. والذي منحه الوقت هو الذي ينزع عنه جزءا من وقته في عبادته كل يوم خمس مرات ..والذي منحه المال هو الذي ينزع بعضا منه للفقراء والمساكين، فهل يقبل العبد أو يرفض؟.

والحج فيه كل هذه المعاني بما فيها الصدقة ممثلة بالهدي وفيه الصوم الذي يأتي ككفارة عند ارتكاب بعض المحظورات.

بعد الاغتسال والحلق والتطيب صليت ركعتين كما تقضي به السنة ثم لبست ثوب الإحرام وهو قطعتان متساويتان من القطن .. أبيض اللون قطعة توضع كإزار، وأخرى توضع لتغطية بقية الجسم العلوي، ولا شيء غير ذلك وخرجت من الفندق قائلا : لبيك اللهم بحج ..

كيف سأتحرك إلى منى هذا هو السؤال الكبير والمحير؟؟ ..لقد مضينا مع إحدى الحافلات نرفع أصواتنا بالتلبية وتقضي السنة أن يتحرك الحجاج من مكة في أي وقت من يوم التروية إلى منى ويبات فيها على الأقل أغلب ليلة التاسع من ذي الحجة ..

انطلقت مع إحدى حافلات الوكالات المنظمـــة للحـــج .. دلنـــي أحدهم على الصعود فصعدت لوجود مجال ولكن لم يكن هذا التطفـــل سهلا البتة.. لقد حدث ولكن بشيء لا يريح النفس .. وهنا بـــدأت أدرك مشاق وصعوبة الحج غير المنظم وسيتبين لي أكثر ماذا يعني السير بلا رفقة صالحة أو ترتيب مسبق ..أي مغامرة هذه في طاعة الله؟ إنها كمن يسلك مفازة بلا راحلة ولامؤنة ولا محطات استراحة مضمونة ..ولذلك كانت من الله رحمه أن نص على الاستطاعة في الحج ..فترى على أي وجه ستنتهي هذه التجربة الروحية؟

مِنى

عند وصولي (منى) وجدت نفسي كصالح في ثمود .. وجـــدت نفسي فردا حيث كانت التدابير قد ضمت زميلي مع البعثة الطبية بفضل وجود قريبه طبيبا فيها .. وإمكانياتهم لا تسمح بالمزيد .. ولم أشـــأ أن أكون ظلا ثقيلا على مخلوق في ضيافة الخالق .. هاهي الناس تنزل من الحافلات جماعات جماعات .. تتقدمهم رايات وصوت يـــدوي يـــنظم مسير الأفواج ويعطي التعليمات التي توصل إلى الجزء المخصص لكل بعثة للمبيت في منى ومنها بعثة الحجـــاج اليمنيـــين ..هـــاهم حجـــاج الجمهورية اليمنية يسيرون في جماعات متعارفة متآلفـــة جـــاءوا مـــن اليمن سويا .. ونزلوا في الفنادق سويا .. وانطلقوا إلى منى ســـويا .. وسينزلون في المخيمات سويا .. كل خيمة ولهـــا وكالتهـــا وأفرادهـــا ومشرفها .. وكل حاج معه بطاقة تعريف وطوق معصم في اليد عليـــه

جميع معلومات الحاج بحيث لو ظل أو جاء عسكري ليسأل عنه وعن القُطر ووكالة التفويج يجد المعلومات واضحة .. ولكنني نزلت وحدي لا وكالة لي .. ولا جماعة لي.. ولا مكان لي .. ولا هوية – إن صح لي قول ذلك – لا أدري كم حاج يسير بالطريقة التي أسير عليها؟ أم أنني قد حصلت على صفة التميز غير المريحة؟ يبدو أن رحلة المغامرات لم تبدأ بعد .. وأنني على موعد مع مفاجآت الله بها عليم .. لقد أصبح إتمام الحج مجال تساؤلات قلقة .. وصرت أتساءل ماذا لو أخذ الحجاج اليمنيون مجالسهم في المخيم وبقيت في الشارع بثوب الإحرام وسجادة صلاة وجاء رجل شرطة يسألني عن وكالتي ومكاني وجواز سفري وطوق التعريف؟؟

علما أن الوكالات لا تساوم في استضافة أحد غير مفوج ومسجل بالوكالات نظرا لخطورة قبول المخالف .. وقبول ترتيباته الخاصة غير القانونية ..ولأن الحاج التابع للوكالة دفع الكثير والكثير –كما يقولون – ومن حقه أن يأخذ راحته ..وقفت أتلفت يمينا ويسارا لعلي أجد حالة مماثلة تشاطرني قلقي فنكون معا رفاق درب يحمل أحدنا الآخر ..ها أناذا أجد خيمة شخصية قد نصبت على الرصيف كأن وضع صاحبها يشبه وضعي فسرّى ذلك عني شيئا .. وفرشت بالقرب منه ثم شيئا فشيئا وجدت كثيرا من الحجاج المفوضين عبر وزارة الأوقاف اليمنية يحجون فرادى ليس لهم أماكن مخصصة – كما قيل– فزاد ذلك عندي من الشعور بالأمان .. اتصلت بالدكتور أن يحضر معه خيمة شخصية وفعلا أحضرها وقرر مواصلة الصحبة ..ونصبنا خيمتنا ولكن ماذا

أغنت عنا؟! كانت ليلتنا في منى ليلاء ..لعل الله أرادها لنا كذلك محبة في زيادة رصيد الأجر ..اللهم آمين.

نصبنا الخيمة وحسْب .. بدون فراش باعتبار فهمنا للمناطق الحارة ..وبثوب الإحرام ..

غير أنه في تلك الليلة التعبدية في منى ليلة (التاسع من ذي الحجة) خيمت علينا جبال من السحب المحملة بالأمطار .. ثم أرعدت في المساء وتساقط المطر بشكل غزير، واستمر المطر في التساقط .. وبقينا في خيمتنا الشخصية التي ليست بالذي يعصم من السيول الجارية .. لا أقول تسرب الماء بل صارت خيمتنا كشراع في لجة بحر مائج، وأخذ السيل يجري من تحت قماش الخيمة الذي نجلس عليه ونحن بأثواب الإحرام بين البرد .. ولا يجوز لبس المخيط عداها .. ولم نكن وحدنا على هذا الوضع بل الكثير من الخيام الشخصية قد نصبت واستمروا بداخلها، ولما اشتد السيل دخلنا خيمة البعثة الطبية .. ولكننا وجدناهم يعانون من تسرب كبير لماء المطر المتدفق بلا انقطاع ..حدث من إحدى جوانب الخيمة وهو ما يعني أننا في كل الأحوال لن نحظى بليلة آمنة بل قارسة ممطرة بثوب الإحرام، قطعة قماش لا دخل لها بمواجهة احتياج ليلة عاصفة كهذه غير أنه لا يجوز أن تضيف عليها ولا أن تغير من وضعها شيئا، بدا وكأننا أمام امتحان أمّنا هاجر وأبينا إسماعيل .. ولولا العناية الإلهية في تلك الليلة الاستثنائية لكان من

بخارج المخيمات – وهم كثر– ضحايا المرض بسبب البرد الذي صار يلسع الأجسام المتلفعة بثوب رقيق هو ثوب الإحرام ..

وقد شملت الأمطار بعض مناطق المملكة ..وكانت في مدينة جدة من الغزارة بحيث ذهب ضحيتها نحو مائة وستة أشخاص وجرفت السيارات، ولكنها كانت في المشاعر بقدر معلوم .. وفي هذه الأثناء تذكرت حجاجا ذوي بشرة بيضاء لعلهم من أصل أوروبي رأيتهم بعد وصولنا قد نصبوا خياما شخصية لعوائلهم ..لا تخفى على الناظر سعادتهم وحماسهم وهم يعدون للمبيت ..وكان ملفتا أن تكون نساؤهم أكثر احتشاما في الحجاب ..لقد كان واسعا فضفاضا مضروبا من الرأس حتى أخمص القدمين فلا يرى من المرأة شيء .. وكان باعث اهتمامي بهم أن أوضاعهم ستسوء، فإذا كانوا حديثي عهد بالإسلام فقد لا يهتدون إلى سر هذا الابتلاء فيكون مظنة للفتنة، وكان من الأوفق أن يحظى مثل هؤلاء برعاية خاصة ومعاملتهم معاملة المؤلفة قلوبهم، وإذا كان من السهل أن يدخل المرء الإسلام أحيانا بأمر ما أعجبه فيه .. فربما كان من السهل أحيانا أن يصرفه عن الإسلام أمر آخر لم يعجبه .. وهنا حضرتني طرفة تعود إلى أحد الصعايدة في مصر كان ينقل السياح فوق حماره يسليهم بمقابل، وكان يود لو يُسلِم أحدهم على يده، وذات مرة وهو يقود أحد السياح سمع السائح صوت أذان أعجبه صوت المؤذن وطرب له .. فسأل الصعيدي عن هذا الصوت الجميل، فبادر الرجل بحماس يفهمه بأنه أذان المسلمين .. وأن الإسلام جميل لو دخل

فيه، فلم يمانع السائح ونطق الشهادتين على يد الرجل .. طار الرجل فرحا بتحقيق حلمه، غير أنه لم يلبث إلا يسيرا حتى انطلق صوت مؤذن ثقيل على السمع ..غليظ على الطبع، فجعل الصعيدي يجر الحمار بعنف وهو يقول : ما تعدي بسرعة لحسن الراجل يكفر .. أدرك الصعيدي بما أنه أسلم بسبب أذان أعجبه فقد يكفر بسبب آخر لم يعجبه.

من السنة أن يبيت الحاج في منى حتى طلوع الشمس .. وهو ما نفعله الآن .. لقد أقيمت مستعمرة بشرية في ظرف ساعات فيها السكن متفاوت بين الرفاهية والمتوسط الحال والضعيف الحال، هناك مخيمات ذات إمكانيات متطورة على مستوى السكن والأثاث والمرافق والطعام .. وتتنافس الشركات في الترفيه على الحجاج، ثم لا تخلو هنا خيمة من مرشد ديني يقوم واعظا ومذكرا عقب الصلوات ..فإذا أمكن لك المرور بين الخيام تسمع المرشدين وقد التف حولهم الحجاج ينصتون لسماع فضل فريضة الحج وفضائل أيامه ومناسكه، وإذا كان من أهل العلم استفتوه في مسائل الحج وهكذا.

وفي الصباح وعند طلوع الشمس توجه الحجاج إلى صعيد عرفات، والمسافة إلى عرفة من مخيم الحجاج اليمنيين يزيد على 14 كم .. تمثل مجموع المسافة من منى إلى مزدلفة ومن مزدلفة إلى عرفة .. وبدأت أحداث قصة مواصلات أخرى، فكل حاج له مقام معلوم وحافلة مرقومة، والمواصلات العامة غير موجودة .. وهي وإن وجدت فبأسعار خيالية ..حتى إن الدراجة النارية تطلب نحو 100 ريال

سعودي وهو ما يساوي 28 دولار لمسافة تقل عن ثمانية كيلو ..فعزفنا عن التفكير فيها فكان يجب أن نفكر في مواصلات تقلنا، تناهى إلى مسامعنا بوجود حافلة خصصت لوكيل وزارة الأوقاف اليمني ستقله إلى عرفات فصعدنا فيها مع بعض الذين تقطعت بهم السبل – إن صح التعبير – من أمثالنا فامتلأت الحافلة بنا .. وكان معنا أحد أعضاء مجلس النواب، وعندما قيل لنا ننزل رفضنا بطبيعة الحال وشرعنا بالتلبية "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك" فجاء معاونان للوكيل اختارهم بعناية لمثل هذه المواقف أي البلطجة وقالا:

– أفضل لكم تنزلوا .. هذه حافلة الوكيل ..وما فيش داعي للكلام والمكابرة.

– والوكيل بما زيّده الله علينا كلنا يمنيون يتفضل يجلس مثل الناس " لبيك اللهم لبيك"

– لبوا ما تلبوا إن شاء الله تقعدوا مكانكم إلى بعد الحج.

– أنتم مسئولون عن حجنا لو تعرض لأي خلل "اللهم إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني " لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا ...

وفجأة صعد السائق وساق الحافلة وشعرنا بالانتصار ولكن لم يدم هذا الشعور طويلا فما إن وصلت الحافلة إلى نهاية العقبة حتى قال:

– هيا تفضلوا؟

– نتفضل أين؟ وعرفات؟

– لا. هذه الحافلة لا تذهب إلى عرفات .. بل هي خدماتية تنقلاتها للخدمة لا لنقل الحجاج .. تفضلوا اسألوا الوزير ..

ذهب وفد لاستيضاح الوزير فرد بأن نعم إنما هي لمجرد الخدمات .. فاقتنع الحجاج ونزلوا ولكننا لم نصل إلى عرفات حتى وجدنا الحافلة خلفنا؟! سبحان الله كذب بدرجة وزير في مكة.

ألم أقل إنها مغامرة! .. ولكن نعم المغامرة أن تكون في طاعة الله لمن لديه استعداد لتلقي المفاجآت، كان الدكتور أمين كعادته الاندفاعية هو المتبوع ..ولم يعدم وسيلة لغير التطفل .. تشبثنا بحافلة أخرى، ودخلنا فيها وقوفا بدون مشاكل لا من نظرات استغراب من ركابها ولا من تساؤل أو تبرم– كتب الله أجرهم– فما أكثر الحريصين هنا على التزود من الطاعات ..فهم بين مكبر ومسبح ومستغفر وفاعل خير ..وما أكثر أيضا اللئام والانتهازيين فلا تخلو هذه الملايين من هذا وهذا .. وقد تجلّى الفرق بين مسؤول بلا مسئولية ولا أخلاق في منى وبين أصحاب هذه الحافلة التي تعج بالطيبة والمحبة ولين الجانب .. فرغم دخولنا عنوة وتطفلنا عليهم إلا أنهم استقبلونا بابتسامات الرضا والهدوء.

مضت الحافلة تسير بشكل مرضٍ من دون زحام .. لأن هنـــاك طرقاً مخصصة لوسائل النقل وأخرى مخصصة للمشاة .. وفي الطريق شاهدنا أعمدة خرسانية ضخمة عرفنا أنها تعد لبناء سكة حديدية لنقــل الحجاج من منى إلى عرفة وهي من المشاريع الحيوية التـــي ستســهل على الحجاج ضغط النقل ومشاكله .. حيث قيل عن مسئولي المملكة إن قطار المشاعر الذي تبلغ كلفته نحو 6,5 مليار ريال سيقطع المسافة بين منى ومزدلفة وعرفات في 7 دقائق مؤكدا تشغيله بواقــع رحلــة كــل دقيقتين تحمل كل منهما 3 آلاف حاج وذلك بطــول يزيــد عــن 14 كيلومترا . أما الطاقة الاستيعابية للقطار فتصل إلى 70 ألف راكب في الساعة وسيكون قادرا على استيعاب خمسة مليون حــاج، وأن القطــار سيكون له 9 محطات للتوقف لإنزال وتحميل الركاب، ثلاث منها فــي مشعر منى وثلاث في مشعر عرفات وثلاث أخرى في مشعر مزدلفة .. أما متى يجهز للركاب فقيل في الأعوام المقبلة .. ولابــد أن الله يعلــم حيث يضع أمانته .. فهذه الخدمات تتعاظم من موسم إلى آخر ماذا لــو كانت المقدسات في بلد آخر كالعراق الذي يــربض فــوق بحــر مــن الخيرات ولكنه لا يجد مقومات الحياة الضرورية.

الحجاج اتحدت وجهتهم وحولوا وجــوههم تلقــاء عرفــات الله ..المنسك الثاني للحج .. وإن مظهر الزحف من منى إلى عرفة يــذكر بالحشر من مصارع الناس يوم القيامة ومدافنهم إلــى أرض الموقــف أرض الحساب .. فالفرد يسير وسط الملايين كما سيسر وسط الخلائق

يوم الدينونة من النشر إلى الحشر متجردا من حلل الدنيا بعيدا عن المظاهر التي كانت تمنحه صفة التميز عن الآخرين، فلا أوسمة ولا نياشين ولا رتب عسكرية ولا تيجان ملكية، إنما هو ثوب متواضع للجميع .. وإلى جانب معاني الافتقار والتواضع تتحقق أيضا معاني الفردية والتجرد من علائق الدنيا ومظاهرها .. فأين الحرس والمراسيم السلطانية في هذه المسيرة؟ أين الشرط وفرق الاستطلاع المتميزة المصاحبة للمسئولين هنا؟ وأين الطواقم المساعدة لأصحاب الثروات ورؤوس الأموال؟ .. إنه تماثل بين الحياتين تعكسه آيات القرآن عن الآخرة :﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام : 94] ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً *لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ [مريم : 93-95].

ها نحن في جبل عرفة .. وليس بجبل كما يوحي اسمه بل هو أرض مستوية باستثناء جبل الرحمة الذي يتزاحم عليه الحجاج للتبرك بالموقف الذي وقف فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – وخطب في الحجاج وليس فيه أي أثر من أفضليه على سائر المكان فجبل عرفه كله موقف إلا (بطن عرنة) ..

في صعيد عرفة زرعت الكثير من الأشجار التي من شأنها تلطيف الجو بظلالها .. وقد أدركنا أهميتها ولذلك يتطلب الوضع المزيد

منها .. كما نصبت رشاشات مائية بـــرش الحجـــاج بالمـــاء المبـــارد ..فيصيب الحجاج من رذاذها ما يلطف من حر الشمس اللافحة .. أما الحمامات والأماكن المخصصة للوضوء فحالها في عرفة كشأنها فـــي جميع المشاعر .. طابعها الزحام وقد يصل الطابور أحيانا إلى عشرين فردا ..حقيقة إن ذلك مما لاينبغي رؤيته مجددا .. فهو وضعٌ ومنظـــر ردئ ليس له أي تفسير .. أما المشارب فهي كثيرة في بعض المواقـــع نادرة في أخرى ..

وفي عرفة نصبنا خيمتنا في مكان ملائم وذهبت أتـــزود بـــبعض الحاجيات ثم رجعت ووجدت الخيمة قد طرأ عليهـــا تطـــور جديـــد .. وجدت على بابها امرأة شابة حسناء .. لبيك اللهم لبيك! .. كـــان إلـــى جوارها ثنتان أخريان وفي الداخل شاب مرافق حتى شككت في العنوان .. ولكن بعد التأكد اقتربت لأضع الحاجيات وأتبـــين الأمـــر، وعنـــدما وجدوني أضع ما بيدي فيها قاموا فقلت :

- استمروا والله لا حرج، رد الشاب:

- لا. وشكرا لازم نطلع.

- ابقوا نحن شابان سنتصرف لا عليكم.

- بل لابد أن نطلع جزاكم الله خيرا.

عرفت أن دخولهم كان بنظر الدكتور .. وكانوا من سوريا ثـم دخلتُ خيمتنا ووجدت أهميتها وقيمتها في شمس الهاجرة .. وتسـرب إلي شيء من نسيم الهواء المنعش .. ثم نظرت على مقربة من بابهـا، أربعة زنوج أو أربع قطع من الفحم لشدة سواد بشرتهم .. قد أطرقـوا في خشوع معظمين شأن يومهم .. يدعون ويستغفرون بسبح طويلـة .. قد استسلموا بصمت لحرارة الشمس تفعل بهم ما تشاء والعرق يسـيل منهم .. كأنما يستمتعون بعبادة الصبر على حرارة طالما شوَت أبدانهم في أفريقيا في سعيهم هناك وراء المعائش .. دعوتهم للدخول فـدخلوا جميعا وتوالى هبوب النسيم البارد فلطف من الجو وغير من وضـعهم، ثم قربت لهم قطفا من العنب وماء باردا فـأكلوا وشـربوا، وشـعروا بالأنس ودفء المشاعر .. وسألتهم عن الجنسية فقالوا من نيجيريـا .. أقبل الدكتور ورفع سترة الباب فوجد ضيوفه قد تغيروا تماما فعَقد بـين حاجبيه في استغراب (!!) وصاح:

– ما هؤلاء؟

– أوادم.

– أيوه يعني ضيوفك؟

– نعم.

رفع الدكتور يده مرحبا بالضيوف ثم نظر إليّ وقال:

– عملك عندي!

– ما تقصد؟ أنت أتيت بضيوف وأنا أتيت بضيوف والخيمة حقي وحقك.

– أيوه بس اللون مختلف خالص.

– والأجر في هذا اللون لو تعرف ..

انصرف الدكتور الزقار لبعض شئونه وانصرف الضيوف بدورهم .. ثم عاد ودخل الخيمة ورفع سترة النافذة القماشية وأطل برأسه ليتفقد هوية جيراننا فوجدهم من جنسية آسيوية ..ووجد إلى جانبهم وهم ثلاثة فقط كرتونين كبيرين يحوي كل كرتون كراتين صغيرة كل واحد يكفي وجبة كاملة من فاعل خير بداخله علبة عصير وعلبة ماء صغيرة .. وبسكويت وكيك شهي عليه الحبة السوداء فقال لهم:

– أعطونا من هذا بفلوس.

فمدوا لنا بكرتونين مجانا وأخذ هو بدوره علبه تمرية صغيرة وأعطاها لهم فأخذوها .. ثم التفت نحوي قائلا:

– مقابل حقهم.

– بس الفرق كبير!

بين أيدينا أغلى الساعات وأثمنها .. نحن نقف في باب عفــو الله في عرفات الله أهم أركان الحج .. وأعظم الأيام عنــد الله .. وقوفــا مستسلما متجردا من معاني الدنيا فلم يبق من مظاهرها شيء .. حتــى هذا اللباس المتواضع هو أقرب إلى معاني الموت منــه إلــى الحيــاة، ومثلما يذكرنا الزحف من منى إلى عرفة بالسير يوم القيامة مــن أرض المنشر إلى أرض الحشر، فإن وقوف الناس بعرفة يذكر بوقوف الناس في عرصة يوم القيامة عندما يستدعي الله العباد للحساب والفصل، ولكن مع فارق أن يوم القيامة يكون في الوقوف لتوزيــع النتــائج وتحديــد المصائر إلى الجنة أو إلى النار، أما في الدنيا فالعبد يقف بين يدي مولاه ولا تزال عنده فرصة لغسل صفحته من أدران الخطايا، فليكن وقوفــه بعرفة وقوف العائذ بمولاه .. وهي مشاعر تحسها والنــاس خاضــعون أمام باب من بيده الرحمة، انتهت حظوظ الدنيا هنا .. وبرز طلب العفو والصفح، وخلاصة الأمنيات ومنتهى الغايات أن يرجــع العبــد بهديــة غفران الذنوب .. وتلك هي الثمرة قال النبي –صلى الله عليه وسلم – " ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبيدا من النار من يوم عرفة إنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء"، وقال "يباهي بأهل عرفات أهل السماء فيقول لهم انظروا إلى عبادي جاءوني شعثا غبرا"، لذلك فقد أكثرنا من التلبية والدعاء والتهليل قال رسول الله – صــلى الله عليــه وسلم– " أفضل الدعاء دعاء عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

بدأ الخطيب يخطب من مسجد نمرة الذي يقع في نهايـــة عرفـــة غير أن العالم كله يمكن أن يسمع هذه الخطبة فيما عدا أهل عرفـــة أو أغلبهم تقريبا .. وذلك بسبب انعدام مكبرات الصـــوت (!!) ولانعـــدام الصوت ينخرط الحجيج بدلا عن السماع في أحاديـــث جانبيـــة تفـــوت المعاني الجليلة التي يجب أن يتزود بها الحاج في حجـــه، فالمظـــاهر الوعظية التي ترقق القلوب وتساعد في تهيئة الحاج لحياة جديـــدة بعـــد فراغه من حجه منعدمة أو تكاد، وبعد أن صلينا الظهر جمعا وقصـــرا وأخذ الناس حاجتهم من الدعاء والاستغفار ها هـــي لحظـــات الســـماح للحجاج بالانصراف إلى مزدلفة مغفورا لهم تقترب.

تناهض الناس في عرفة للنفرة .. والنفرة هي لحظة النزول مـــن عرفة إلى مزدلفة بعد غروب الشمس، وقد كان بخلدي أنه مع غـــروب الشمس وانطلاق صوت الأذان يبدأ الناس بالتحرك فيسيرون بانســـياب ولكن الشمس غربت والسيل البشري ظل واقفا باتجاه مزدلفة لا يتحرك .. مضى الوقت والناس على حالهم حتى 45 دقيقة .. هـــذه المســـيرة المليونية الفريدة على الإطلاق ..واقفة على أقدامها تكاد تكـــون شـــبه ملتصقة ببعضها ..اتجهوا جميعها نحو (مزدلفة) وحســـب .. شـــيء لا يتكرر في عالم الناس إن هذه الملايين الواقفة يلفها غلالة من الســـكون والخشوع الذي لن تجد له تفسيرا سوى جلال ومهابة المخلـــوقين فـــي حضرة الخالق ..عُدْ إلى التجمعات الجماهيرية فـــي أي مكـــان ســـتجد الصراخ والتعارك والاستطراد الشخصي في ضروب مـــن الحركـــات

والمماحكات .. من يستطيع أن يسكتهم؟ من يستطيع أن يوجههم كما يريد؟ من يستطيع أن يسوي صفوفهم في دقائق على غرار استواء الناس بالملايين للصلاة أمام الكعبة وفي لحظات يكونون منتظمين في انضباطية بشرية عجيبة دون أن يحتاجوا إلى آلاف الشرط والمنظمين؟ وهاهنا ملايين هادئة قد لفها ثوب الخشوع لا يشق جدار سكونها سوى تكبيرات ترفع من هنا وهناك، وكان منها صوت طفل صغير باكستاني يمتطي منكبي أبيه لم يتجاوز الخامسة كما يبدو ..يرفع بالتلبية بصوت يسمعه الآلاف .. فيلتفتون نحوه ويضحكون ويعجبون من إتقانه للتلبية وجرأته، ولمّا لم يجنح إلى الصمت شرع الحجاج يلبون بعده بصوت واحد (لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد .. والنعمة .. لك والملك .. لا شريك لك).

لم أدر عن سر ذلك التوقف الذي حال دون تحرك الجموع وبذلك الطول من الوقت بعد الغروب .. ولكن قيل لي أن تحرك هذه الكتلة البشرية في لحظة واحدة ونحو اتجاه واحد وفي طريق واحدة يجعل الانسياب صعبا فيحدث التأخر ..

وقد جاء في حديث جابر الطويل قوله : " فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلا حين غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد شنَق للقصوى الزمام .. حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده : أيها الناس

السكينة، السكينة، كلما أتى حبلا من الحبال أرخى لهـــا قلـــيلا حتـــى تصعد، حتى أتى المزدلفة".

هذا الحديث التصويري يسجل توافقا عجيبا وهي السكينة .. لكن الناس الآن تمشي شبرا وتقف طويلا وتمشي ذراعا وتقف أطول، نعـــم رهبة السكينة مدركة .. ولكن هذا البطء في الانسياب هل فـــوَّت مـــن عظمة التوقيت وجلال المنظر في النفرة الواحدة عند تـــواري قـــرص الشمس؟ هل ثمَّ معالجات لو حدثت لقلل من هذا التـــراص وحـــال دون سير التدافع أثناء السير .. لقد تكدس الناس فوق بعضهم وإن انفضاض التلاحم يحتاج إلى وقت وإلى توسيع فضاء المسيرة.

سرت مشيا وسط الجموع الزاحفة إلـــى مزدلفـــة، أمـــا رفيقـــي فلظروفه الصحية فقد آثر أن يكمل بقية السير راكبا .. ففارقني على أن نلتقي عند أول معْلم في مزدلفة، استمر السير في خط مســـتقيم ثمانيـــة كيلو، وكنا نجد قبل الوصول إلى مزدلفة حجاجا قـــد افترشـــوا الأرض وناموا جهلا منهم بحدود مزدلفة .. وعدم إدراك أن المبيت يجـــب أن يكون داخل حدودها، وهذه الظاهرة تتكرر في منى أيضا فتجد عشرات الألوف ينامون خارج محيط منى مع أن المبيت يجب أن يكـــون أكثـــر الليل بمنى لا خارجها .. والذي ينام خارجها في ليلـــة أوجبـــوا عليـــه التصدق على مسكين أو مسكينين، أما إذا نام الثلاث الليالي خارج منى فعليه دم ..

أثناء الطريق إلى مزدلفة كنت على موعد مع مفاجأة سارة .. إنها وجبة من وجبات اليمن بعد تعطش للوجبة اليمنية ..وهي كبدة طرية مقلوبة مع الفلفل والسلطة وإن كان ينقصها الطماط المسحوق .. وحقيقة أن نوع الطعام في الأراضي المقدسة مسألة جديرة بالذكر .. لا أدري كيف يعيش الناس بتلك الأطعمة المغلفة الناشفة التي تغص بها الحلوق وتنقبض منها النفوس، فلا طعم لها ولا رائحة إلا مجرد الحشو؟؟ كيف يصبرون على طعام واحد وهو الرز والدجاج من الليل والنهار وقد خلق الله ما لا يُعَدُّ ولا يُحَدُّ من ألوان الأطعمة والأشربة المتنوعة الغذاء والمتعددة الفوائد؟ .. ولكن ومع ذلك لو كان ثمة رز ودجاج معد كما يعد الناس وفي مطاعم منتشرة في المشاعر بحيث يجد الحاج فيها بعض الراحة .. ويعفي نفسه من التدافع على شراء مأكولات لا تؤكل كما نجد في ساحة الجمرات فلا يخلو هذا التدافع والزحام من وجود مُلاحاة بين الحجاج وإفساد لمعاني الحج.

...ها هي ذي مزدلفة تقترب وتلوح منها عن بعد لوحة كبيرة كتب عليها (بداية مزدلفة)، وفيها وجدت العجب العُجاب فالطليعة الأولى للجموع الزاحفة من عرفة إلى مزدلفة وتقدر بثلث الحجاج ما إن وصلت إلى بداية مزدلفة حتى افترشت الأرض ونامت في الطرقات والممرات .. وسدت المنافذ ولم تترك مجالا وسعة لمواصلة تدفق نهر الحجاج إلى نهاية مزدلفة .. فتأخذ أماكنها بدورها .. وللأسف لا وجود لتنظيم هنا بل كل حاج أمير نفسه .. يرمي بنفسه كيفما اتفق المهم ينام

ولو وسط السكة.. وربما رأيت طابورا بشريا يشبه النهر المتدفق يشق في وسط النيام طريقه بصعوبة .. فيلتقي بنهر آخر في وسط الطريق يريد الاتجاه المعاكس والناس تحت أقدامهم يغطون في النوم فيقعون في حيرة فلا يستطيعون التقدم ولا التأخر، ولو كان هناك شيء من التنظيم لكرروا تجربة الجمرات بمنع الجلوس أو النوم في المربع الأول حتى يصل الحجاج إلى نهاية مزدلفة وتأخذ المسيرة نهايتها فينامون في مربعات الفوج تلو الفوج، فيكون أولهم نهاية مزدلفة وآخرهم بدايتها.

تلك هي المشاهد التي تلفت اهتمام الحاج إلى أن ثمة فجوات قاتلة لا تزال موجودة في سياق التنظيم وتأمين الانسيابية المريحة، وتحتاج من المملكة إلى بذل المزيد من الجهد لتلافيها فهي تكاد تتكرر سنويا وقد أخبرني بالشيء ذاته المفكر الأستاذ الدكتور / أحمد الدغشي الذي حج هذا العام، ويطلق نفس التأسفات التي شعرت بها في نواحي القصور، حري بالمملكة أن تسد تلك الثغرات بمزيد من الدراسات لتقليص السلبيات وتصفيرها ما أمكن.

فتحت خط الهاتف كي اتصل للدكتور/ أمين .. وعندي الآن مشكلة وهي قرب انتهاء بطارية الهاتف وعدم وجود أماكن كافية للشحن .. فهي لقلتها في حكم المنعدمة .. ولذلك ينصح أن يكون مع الحاج أكثر من بطارية احتياطية لأن التواصل في الحج شريان حياة ليس عنها غنى .. رجوت صديقي أن يحضر إلى تحت لوحة (بداية مزدلفة) لكنه لظروفه الصحية طلب مني أن أحضر إلى معلم سماه لي، ولم يتسن

معرفته ثم ربطه بمعالم أخرى فربط المجـــردات ببعضـــها الـــبعض ومزجها باستطرادات كلامية لو عصرتها لم تخرج منها بكـــلام مفيـــد وكان هذا مما يثير أعصابي البطارية على وشك والعنوان مهم والكلام غائم عائم .. لقد كان زميلي كثير الاجتهاد كثيـــر التفلـــت .. كثيـــر الانفتاح .. كثير الاستطراد .. فيما أنا كثير الهـــدوء قليـــل الاســـتجابة ..هادئ التفكير .. فكنا ثنائية ضدية وقد صنفت شخصية رفيق التجارب د أمين أنها تعمل ثم تفكر .. وتعمل في أكثر من اتجاه في وقت واحـــد ثم تقيم عملها .. وبين شخصيتي التي تحب أن تفكر ثم تعمل، وأعتبـــر السرعة تشويشا يؤثر على دقة الحسابات ويوقع في الخطأ .. ولكل نوع إيجابياته وسلبياته وقد استفدت كثيرا من إيجابيته ولابد أنه أيضـــا قـــد استفاد مني ..

صممت على البقاء مكاني ثم حدث تحول إلى خلف اللوحة فإذا عليها مكتوب (نهاية منى) بينما مكتوب من الأمام (بداية مزدلفة) فقـــت له :

– لابد وأن تحضر إلى تحت اللوحة إنها معلم واضح يشـــاهدها جميع الناس انظر إليها مكتوب عليها (نهاية منى) وعندما سمع كلمـــة (نهاية منى) استغرب، حيث يمكنك إذا رميت ببصرك إلى نهاية منـــى بالاتجاه الآخر أن تجد لوحة أخرى نفس النسخة مكتوبا عليها باتجاهنـــا (نهاية منى) فظن أني في الطرف الآخر وعلى تلك المسافة من البعد– قال:

– وينك؟ ... (نهاية منى)؟ أنت بعيد جدا .. أين بداية مزدلفة وأين نهاية منى؟ ارجع ارجع . أمامك مسافة كبيرة .. الله يسامحك .. كنت أظنك قريب .. وفي غمرة إلحاحه على تصحيح العنوان لم انتبه إلى أن المسألة مسألة وجه اللوحة وخلفها .. وغابت عني القراءة الأولى وحسبتها أيضا (نهاية منى) مع أننا قريبون من بعض لكن لم يشعر أحدنا بالآخر .. وبدافع الوقت والخوف من انتهاء البطارية قبل لقائه وافقته على العودة ولكن إلى أين؟ وكيف؟ أمامي لحوم بشرية متراصة سدت الأفق ولم يبق موضع قدم للتحرك .. خلعت حذائي وسرت أقطع الطريق وسط الكتل البشرية النائمة فكان منهم من يقول وأنا أدوس بجانب رأسه :

– حرام عليك يا حج، فأرد عليه.

– حرام عليك أنت الذي نمت في الطريق، وحبستنا حبس الفيل.

كنت كمن يحاول الخروج من المتاهة إلى متاهة أكبر اتصلت لصاحبي الدكتور : نم يا أخي حيثما يقدر لك الله فلنتواصل غدا وإن غدا لناظره قريب.

صليت المغرب والعشاء واخترت مكانا لأنام فيه وكان وضعي الصحي قد بلغ حدا من التأزم .. ذلك أنني عندما نمت في الفندق بمكة أخذت حماما ساخنا ثم نمت والمكيف البارد يعمل فوق رأسي بشكل هادئ وفي أيام لا تنقصها البرودة .. فنحن الآن في النصف من شهر نوفمبر فما أن قمت حتى كنت في حالة نزلة شديدة تبعتها سعلة حادة ..

ثم جاء المطر بـــ(منى) مع ثوب الإحرام وبطانية خفيفة نفترشها لأننا كنا نعمل حساب حمل الأمتعة فتعقدت المسألة .. فنمت بثوب الإحرام كالآلاف من أمثالي من دون أي إضافة وهنا تتجلى عناية الله فلو التقى وضعي الصحي المهتز ونوع اللبس الخفيف مع الظـــروف المناخيـــة الباردة في غير مكان التعبد هذا لكان الأمر بظني مختلفا بكل المقاييس .. ولقد استمرت الأمور شبه عادية حتى نهاية الحج .. ثم نالني بعـــده شدة الإرهاق وأنا في ظروف أفضل وفراش دافئ.

أطل يوم النحر ونحن في مزدلفة وفي الصباح اكتشفت أنني لـــم أكن بعيدا جدا من صديقنا العزيز ..بل قريب جدا ..وصلينا بالقرب من مسجد مزدلفة والتقينا في محرابه الخارجي ..ودعونا الله عند المشـــعر الحرام ومما أثار اهتمامنا تلك الوجبات المجانية التي وزعت للحجـــاج بعرفة من فاعل خير وأخرى مقدمة مكتوب عليها هدية الملك فهد وتزيد على سابقتها بعلبة جيلي أناناس صغيرة .. هذه الوجبات فككها بعـــض الحجاج الذين أخذوا بالكراتين الكبيرة وفوق حاجتهم وبطريقة غير لائقة بحاج يفترض فيه الإيثار، فلما لم يجدوا قدرة علـــى مواصـــلة حملهـــا بعثروها في مزدلفة وامتلأت بها الساحات .. يدوسها الناس من دون أن تُمس ولا تزال مغلقة وبخاص الكيك والبسكويت .. فهل هـــذه الوجبـــة المجانية امتحان ليعرف من أورثهم الحج معاني الأدب والزهـــد ممـــن ضعفوا أمام شهوة النفس وجشعها!

قبل أن تطلع الشمس دفعنا لرمي جمرة العقبة في اليوم العاشـــر وهو يوم العيد ويوم النحر وقد التقطنا حصى الرمي مـــن مزدلفـــة .. واختار أمين الركوب وأنا لا أحب الركوب .. وقد كان الركوب مقلبـــا كبيرا من مزدلفة إلى الجمرات .. ذلك أن السير مشيا كان هينا لينا على الحاج .. أما الركوب إلى الجمرات فإنه يمر بالمدينـــة ومـــع الزحـــام وإشارات المرور أخذ منا ذلك الساعات.

ففي الوقت الذي كان الحاج الذي انطلقنا معه قد رمى الجمرات وذهب إلى مكة كنا في الطريق نسير سير السلحفاة، على أن للســـيارة التي أقلتنا قصة .. إنها سيارة باكستاني يعمل بالمخالفة لديه سيارة كـــل قطعة فيها هي من البلى والتهالك بحيث تحكي تاريخ نضال وحـــده .. إنها إن صلحت صلحت لنقل الأضاحي وبشرط مع التواري عن أنظار حقوق الحيوانات ..غير أن الباكستاني عبأها عن آخرها .. ولصق البقية على الشبك الحديدي من الخارج وأخذ من كل فرد عشرين ريالا .. أي أنه سيجمع تقريبا قيمتها والحملة الثانية ربح، وطالما لا يزال الحاج في مكة فهو مجال استثمار وتشليح من قبل الجميع، وعليه أن يبذل ما فـــي يده مقابل لا شيء أحيانا .. فإذا ركب لم يستفد من الركوب .. بل ربما خسر الوقت وإذا ابتاع قوتا لم يستفد أحيانا منه إلا ما يسقط عنه فريضة الوجبة، ويزود بما يقوي صلبه على الطاعة .. وأهل مكة يتعللون بـــأن لقمة عيشهم تتكرر فقط مرتين في العام .. مرة عند موسم الحج ومـــرة عند العمرة برمضان .. وعلى الحاج أن يدفع الفارق لبقية السنة.

وصلنا إلى الجمرات عن طريق (مسجد الخيف) ثم نزلنا إليها في الطابق الأسف وشاهدناها قريبة منا لا تبعد سوى أمتار، ولكن لن تسمح الشرطة واللجان المنظمة الدخول من أي منفذ غيــر مكــان واحــد .. ومعهم الحق كي لا يحدث إعاقات وتقاطعات وتصادم التيارات البشرية فتتكرر مآسي موت الحجاج عند الجمرات .. فوجهونا لنذهب إلى الأمام ونكمل الالتفاف بطريقة نصف دائرة لنعود مرة ثانية في اتجاه جمــرة العقبة .. فمشينا ومشينا وطال المشي .. وكلما حاولنا إيجاد منفذ قريب يختصر المسافة إلى الجمرات قيل لنا من هناك تلف .. هيا .. تفضل يا حج .. امش ياحج .. ممنوع الوقوف ياحج .. ونحن نعجب من طــول هذه اللفة التي أخذت زهاء ساعتين حتى لقد سقط ثوب إحرام الــدكتور الذي يغطي به جزأه العلوي .. ولم يكتشف ذلك إلا قريبا من الجمــرة وبطنه وظهره مكشوفان .. ولعل السبب يعود إلى انشغاله بالتســلخات التي ظهرت أعلى الفخذين لكثرة المشي .. فصار يقفز ويتوجع ويترنح ولا يدري ما يفعل فالوقوف ممنوع .. والمشي إجبــاري .. والطريــق طويل .. والالتهاب على أشده .. فسألني :

– لديك مرهم . أين هو؟

– إنه للتحسس الجلدي ما تصنع به؟

– هات أي شيء لا طاقة لي بالصبر.

– أعطيته المرهم فأخذ منه فاشتعلت النار وزاد اللهيب وكان كمن يصب الزيت على النار فقلت مازحا:

– طهور .. طهور .. إن شاء الله .. دع هذا مكفرات لما سلف .. لا تكون ذهبت يمينا أو شمالا.

– حرام عليك لا تكمّلها من عندك.

تقع الجمار داخل منى وما هي إلا نحو مائتي متر حتى خرجنا من منى في اتجاه مكة .. وأول ما يثير الانتباه هو الاهتمام الجيد من قبل السلطة ببناء الجمرات بناء ضخما يؤمِّن انسيابا هادئا للحاج بسعة الممرات والاتجاهات المحدودة والأدوار التي وصلت إلى خمسة وبأساسات قيل إنها قادرة على تحمل 12 طابقا وخمسة ملايين حاج في المستقبل إذا دعت الحاجة لذلك .. ويرتفع الدور الواحد اثني عشر مترا فيما يتضمن ثلاثة أنفاق وأعمالا إنشائية مع إمكانية التطوير المستقبلي. ويوفر المشروع 11 مدخلا للجمرات و12 مخرجا في الاتجاهات الأربعة الدور الأول الحجاج القادمون من منى .. ومنحدرات الخروج توجهه أيضا إلى منى .. وكذلك الحال بالنسبة لدور الحجاج القادمين من مكة .. والدور الثالث يخدم المنطقة الشمالية وشارع الملك فهد والدور الرابع يخدم منطقة ربوة الحضارمة وطريق الملك عبد العزيز العلوي .. وقد زُود الجسر بمهبط لطائرات مروحية لحالات الطوارئ ونظام تبريد متطور يعمل بنظام التكييف الصحراوي يضخ نوعا من الرذاذ

على الحجاج والمناطق المحيطة بالجمرات مما يؤدي لخفض درجة الحرارة إلى نحو 29 درجة .. كل ذلك ربما أنهى إحدى المعضلات في الحج وهي استقبال مئات الآلاف في لحظة واحدة في بقعة واحدة صغيرة لا تستوعب تلك الكتل البشرية المندفعة فتتكرر الوفيات فقد بلغ عدد حجاج موسمنا هذا (2,313,278) حاجا .. لهذا رمينا جمرة العقبة بيسر وهي الوحيدة التي ترمى يوم العيد من طلوع الشمس وحتى الزوال، وعندما رمى الدكتور وقعت حصى في جبهته من إحدى الراميات فأدمته وورمت جبهته سريعا فسألته:

- ما هذا؟!

- إحدى النساء كما يبدو ضعفت يدها عن إيصال الحصى.

- أو ربما شبهتك!

-؟؟!

ركبنا لطواف الإفاضة حافلة إلى مكة بثلاثين ريالا على الراكب .. على أنني لا أنصح بركوب حافلة يوم العيد من منى إلى مكة .. لأنها تسير كالسلحفاة فتضيع الوقت وتهدر المناسك، فقد أخذت مع السيارة الأولى واللفة الأسطورية على الجمرات وقتا من بعد الفجر إلى وقت صلاة المغرب .. بينما وصل من مشى إلى الجمرات ثم أخذها

مشيا أيضا إلى مكة دون أن يركب وصل مكة الساعة التاسعة صباحا وانظر كم الفرق ..

وصلنا مكة بثوب الإحرام لأننا لم نقصر أو نحلق فلم نتحلل من ثوب الإحرام بعد .. إذ لا يصح التحلل إلا بعد رمي الجمرة .. وتبقى واحدة من اثنتين إما (طواف الإفاضة والسعي) أو الحلق .. فحلق لي في الفندق الشيخ محمد صالح صفرا بآلة حلاقة كانت معي .. ثم أخذت حماما وغيرت ملابسي .. وارتحت قليلا وذهبت لطواف الإفاضة والسعي بين الصفا والمروة .. الآن يتعين علي الذهاب للمبيت غالب الليل في منى .. وهذه المناسك كلها في يوم واحد هو اليوم العاشر .. أي الدفع مع مزدلفة إلى الجمرات .. ومن الجمرات إلى مكة .. ومن مكة إلى منى للمبيت .. وبين المشعر والآخر ما يصل إلى ثمانية كيلو تقريبا .. وكنت أفعل كل هذا وأنا أحمل بطانية وسجادة وأغراض شخصية وخيمة سفرية في حقيبة على ظهري .. هذا على ما فيَ من تداع صحي حتى لقد كنت أتهادى على نفسي من شدة الإرهاق .. هل هناك في هذا اليوم من هو أشد مني إعياء؟ .. آه .. بلِّغوا عني يا حجاج أنني ذبيحكم لهذا العام .. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. بهذا عرفت لماذا الحج يغسل الذنوب فيعود الحاج كيوم ولدته أمه .. إنه لم يذهب في سياحة ولا تسلية أو تغيير جو .. إن أرض الحرمين أرض قياسية لمدى تحمل عبادة جمعت بين كل العبادات.

حج قائم على المشقة ذكرني حجي هذا بحج الآباء والأجداد كيف كانوا يحجون .. وأي مبلغ من الجهد كانوا يبذلون .. وربما اضطر بعضهم أن يحج مشيا على الأقدام من بلده .. ثم لا فنادق في الطريق .. ولا حافلات مكيفة .. ولا وجبات سريعة .. ولا مشروبات باردة .. ويذكر التاريخ الحسن بن علي رضي الله عنهما حج خمسا وعشرين مرة ماشيا، ونافع بن جبير أحد الرواة كان يحج ماشيا وراحلته تقاد معه ..وحج الزمخشري صاحب تفسير الكشاف ماشيا حتى تقطعت أصابع قدميه من الثلج ..غير أنه لم يثبت جواز التعبد إلى الله بالمشي مع وجود الراحلة .. فإن الله لم يرد أن يعذب عباده، والراحلة من شروط الاستطاعة، ولكن من لم يجد الراحلة وأحَب أن يعبد الله على ما في حجه من المشقة فلا شك أن الأجر بقدر البلاء .. والخلاصة أن الحج رحلة لا تخلو من التعب ولكنها رحلة ميلاد جديد .. وإشراقة روح على جداول الإيمان ومروج الفضائل .. إنه منحة ربانية لتخليص المسلم مما علق به من أوضار الحياة المليئة بالذنوب والمعاصي ليستأنف حياته من جديد ولكن بروح جديدة وعمر جديد ..

وصلت إلى داخل حدود منى وفرشت ونمت حتى مطلع الفجر .. صلينا جماعة .. وعدت لأنام ثم أقرأ القرآن ولم أدر ما أفعل فلا يزال الوقت بعيدا على الزوال.

أطليت على مخيمات منى من أعلى فوجدتها مدينة بيضاء جميلة .. وعندما سألت عن (المعيصم) الذي يستقر فيه الحجاج اليمنيون

وجدته في آخر نقطة من منى .. وآخر نقطة من الجمرات فلم أفكر في الذهاب إليهم إذ لا شيء يربطني بهم .. ثم بدا لي أن أمشي خطوة خطوة إلى الجمرات حتى يأتي الزوال فنرجم قبل الزحام ولكنني تورطت كبعض الحجاج .. فإنه من دخل الممر المفضي إلى الجمرات فإنه يتحتم عليه المضي وعدم العودة مع عدم التوقف أيضا ونحو ساعتين بأمر منظمي الحجاج والكشافة والمرشدين .. ولا منفذ للعودة بل السير في خط مستقبل لأن العودة تعني السير في اتجاه معاكس لتدفق الحجاج وهذا ممنوع واستمريت أسير وأسير وأسأل الشرطة:

– أليس الرمي بعد الزوال؟

– بلى.

– فلماذا تجبرونا على السير ولا يزال الوقت مبكرا.

– ممنوع الجلوس يا حاج .. أتفضل الله يهديك.

ثم أسير وأجلس حتى يأتي شرطي آخر يستنهضني .. ثم أسير قليلا وأجلس وتتكرر الأوامر:

– يلا يا حجاج .. ممنوع الجلوس هنا .. تحرك حاجي .. قوم يا حاج الله يهديك .. وهكذا حتى دخلت الجمرات في الضحى فوجدت الأيادي تعمل في الجمرات رميا قبل الزوال؟؟!! .. الله أكبر .. الله أكبر

..يرمون الشيطان بلا زحمة وبلا رحمة أيضا، وفي غير وقت الرمي سألت الشرطي:

- خير إن شاء الله ماذا يفعل هؤلاء؟.

- يرمون.

- ولكن الرمي يأتي بعد الزوال لا قبله.

- ولكن بعض المشايخ أفتوا.

سألت مدنيا له لحية تدل على أن عنده علما من أمور الحج:

- متى يكون رمي الجمرات في أيام التشريق أليس بعد الزوال؟

- هذا هو الأفضل ولكن ما تقول للناس.

سبحان الله يعني استدرجونا لكي نأتي نلعب .. حاضر يا منظمين سأرجم ثم أقضي الرجم مرة ثانية .. والشيطان يستحق وهذا كله بفضلكم يا طويلين العمر .. الله أكبر.

نصبت خيمتي بعد الزوال، وبعد أن قضيت الرجم تحت جبل في ساحة الجمرات خارج حدود منى لكي أذهب للمبيت في منى على قرب منها، وقد نهض لمساعدتي في نصبها أحد الحجاج المصريين وأحد الحجاج الشاميين .. ولكن وجدت خيمتي لا تثبت أمام هبوب الرياح الخفيفة فهي دائما تهدد بالسقوط .. وذلك أنها كبيرة نسبيا فسعتها لأربعة

وتحتاج إلى كثير من الأدوات بداخلها لكي تثبت أو سكان يملئونها أما الدكتور فقد استقر مع عمه يدور معه حيث دار .. قلت للأخوة المصريين وليس لديهم خيمة:

– هاتوا أمتعتكم وأدوا المناسك وعودوا إلى أمتعتكم وقت ما تحبون ففعلوا وأضفت بعض الأحجار فسكنت من التأرجح ..

إن العودة مجددا إلى منى للمبيت فيها يوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر كأنما هي بمثابة التفرغ لتصفية حساب العبد مع الشيطان .. حيث سيرجم الجمرات الثلاث كل يوم بواحد وعشرين حصاة، من بعد الزوال أي من بعد صلاة المظهر كل يوم يبدأ بالصغرى ..ثم الوسطى .. ثم الكبرى وكلها يضمها الآن مبنى واحد والمسافة بين الجمرة والأخرى عشرات الأمتار .. وتعود قصة رمي الجمرات إلى نبي الله إبراهيم – عليه السلام – حيث رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه ورؤيا الأنبياء حق، وكان هذا اختبار من الله لنبيه إبراهيم فلقد جاءه الولد على كبر سنه قال (أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون)؟ وقالت زوجته (يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا) .. فجاء إسماعيل عليه السلام أول ولد بعد طول رجاء وانتظار وابتلاء على طاعة الصبر .. وكان قبل حداثة الذبح قد ابتلي إبراهيم عليه السلام بترك ابنه بوادي غير ذي زرع عند بيت الله المحرم حيث لا ماء ولا نماء ولا أنيس ولا جليس أرض مقفرة فنفذ توجيه مولاه، وترك ابنه الذي انتظره طويلا بعيدا عنه مستسلما لقضاء قضاه الله

ونجح في الابتلاء الثاني، بعد ابتلاء عدم الخلفة .. ثم إذا ما بلغ وحيده السعي وهي الفئة العمرية التي يشعر الوالد بثمرة ولده في خدمته رأى في المنام أنه يذبحه ابتلاء ثالث أشد على النفس وأثقل على القلب لكن ما من بد من تنفيذ أوامر الله وفي وحبُّ الأب لابنه الصغير وحدبه عليه في سن متقدم يكون أشد .. فأراد الله أن يرى مبلغ طاعة إبراهيم له .. واستسلامه لمشيئته .. ويكون البلاء على قدر إيمان العبد ومنزلته عند ربه .. وقد يتولى الله قبض طفل الرجل المؤمن .. فمنهم من يرضى ومنهم من يتسخّط لكن أن يرى النبي رؤيا منامية ليس في وحي أنه يذبحه .. وأنه هو من سيتولى إنهاء حياة صغيره بيده على ما فيه من عاطفة الرحمة وصعوبة المهمة وهول المفارقة لهو البلاء العظيم، وهو اختبار ليس على مشقته مزيد، وللمرة الثالثة ينجح أبونا إبراهيم في الاختبار ووفى بما أرم الله قال الله (وإبراهيم الذي وفى)، ويكفي هاهنا توفر نية الفعل عن الفعل نفسه فالمهم هو الامتثال للطاعة .. وكأن هذا الأمر التعبدي بإخلاص الطاعة عن طريق الجود بالنفس لو كان أحد يستحق أن يطاع بتقديم القرابين البشرية لكان ذلك هو الله وحده، لأن الذي أوجدها هو وحده صاحب الحق في استردادها بالطريقة التي ترضيه ..

ولكأن الله قد تقبل هذا القربان البشري من أبينا إبراهيم عن بقية الموحدين واكتفى من عباده بما يقدمونه من الفدية والهدي، وكأن الذبح العظيم هو استهلال للنسك الذي يريده الله في محراب طاعته، كما ورد

في الحديث " خرج إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فتمثل له الشيطان في صورة رجل فقال له : أين تذهب؟ فقال إبراهيم – عليه السلام – : مالك ولذلك، أذهب في حاجتي، قال : فإنك تزعم أنك تذهب بابنك فتذبحه قال : والله إن كان الله أمرني بذلك إني لحقيق أن أطيع ربي، ثم ذهب إلى ابنه وهو وراءه يمشي فقال له : أين تذهب؟ قال : اذهب مع أبي، فقال : إن أباك يزعم أن الله أمره بذبحك، فقال له مثل ما قال إبراهيم، ثم انطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كانوا على جبل ﴿ .. قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات : 102] ويا أبت أوثقني رباطا لا ينتضح عليك من دمي، فقام إليه إبراهيم بالشفرة .. فبرك عليه فجعل ما بين لحيته إلى منحره نحاسا لا تحيك فيه الشفرة، ثم إن إبراهيم التفت وراء هذا هو بالكبش فقال : أي بني قم فإن الله فداك، فذبح إبراهيم الكبش وترك ابنه، ثم إن إبراهيم عليه السلام قال : يا بني إن الله قد أعطاك بصبرك اليوم فسل ما شئت تعطى قال : فإني أسأل الله أن لا يلقاه عبد مؤمن به شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا غفر له وأدخله الجنة.

وإذا كانت الابتلاءات قد جاءت بمستوى صبر نبي فإن المكافأة قد جاءت بحجم كرم رب عظيم حيث بارك الله في نسل إبراهيم وجعل نسله شجرة من الأنبياء باسقة الأغسان .. وارفة الظلال .. طيبة الثمار، وامتدت أبوته إلينا (ملة أبيكم إبراهيم).

وعن قصة الرمي بالحصى روى القرطبي أنه " لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال: أيْ ربِّ! قد فرغت فأرنا مناسكنا، فبعث الله تعالى إليه جبريل فحج به، حتى إذا رجع من عرفة وجاء يوم النحر عرض له إبليس، فقال له: أحصبه، فحصبه بسبع حصيات، ثم الغد ثم اليوم الثالث، ثم علا ثبيرا فقال: يا عباد الله، أجيبوا، فسمع دعوته من بين الأبحر ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقال: لبيك، اللهم لبيك، قال: ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعدا، لولا ذلك لأهلكت الأرض ومن عليها. وأول من أجابه أهل اليمن. وعن أبي مجلز قال: لما فرغ إبراهيم من البيت جاءه جبريل عليه السلام فأراه الطواف.

ومن ذلك الحين شرع رمي الجمرات وهي رمزية لعصيان الشيطان وإنكار إغوائه للإنسان .. وتأكيد مقاطعته واتخاذه عدوا .. ودوام المفاصلة واختلاف الاتجاه بيننا وبينه منذ عهد أبينا إبراهيم عليه السلام .. ولا يعني أن رمي الجمرات هو رمي للشيطان وأنه يصاب بها إصابة مادية، بل هي رمزية لا أكثر، وكون الأمر كذلك فمن البدع تحري ما يظنه العوام إيقاع الأذى به برمي الجمرات بالحجارة الكبيرة والنعال فهذا غير مشروع.

وبقيت ليلة الثاني عشر ولما كانت خيمتي خارج (منى) فلا بد من تركها ومغادرة المكان للمبيت معظم الليل في منى القريبة، لذا اصطحبت البطانية والسجادة وبحثت عن المكان الآمن والملائم ففي

منى كما في الحرم تنعدم أو تكاد اللوحات الإرشادية التي من شأنها أن تدل الحجاج على الأماكن الممنوع النوم فيها والمخصصة للنـــوم؛ لأن المبيت فيها عبادة وليس اختيارا، فلابد من أماكن واضحة لذلك قد يأنس الحاج إلى المكان فيختاره ويفرش بأمان ويمد فيه كما مد أبو حنيفة ولم يبال، وقد ينام ثم يفاجأ بالشرطة تستنهضه في أي وقت، لأن النوم فـــي هذا المكان ممنوع مع أن الحجاج قد يكونون بالمئات .. وعلـــى كـــل رأيت بتخميني أنني في الموضع الآمن وكنت أمام برجـــي الجمـــرات فأخرجت سجادتي وبطانيتي من الحقيبة القماشية وفرشت.

تفحصت جيراني فوجدت ثلاثة حجاج ملتحين يبدو عليهم الالتزام وتؤكد أشكالهم أنهم سعوديون وبجانبهم رجل مسن وهذه اللقطة لهويتهم الجماعية رسمتها وأنا أخرج أغراضي .. لاحظتهم ينظرون إليّ بترقب وبصمت ويتفحصون ملامحي وحركتـــي .. كـــان اثنـــان مـــنهم فـــي الأربعينات على التقريب والثالث في أواخر العشرينات والرجل المسن في السبعينات تقريبا، فاستغربت لهذا الاهتمام بنظراتهم .. لعلهم غيـــر راضيين بوجودي إلى جانبهم فقلت مستوضحا :

– ينفع افرش هنا؟

فرد أوسطهم بحماس وابتسامة:

– ينفع بالقوة .. وين ما بتريد.

– متشكر.

ولما وجدتهم منخرطين في صمتهم وتفحصهم جلست مكاني ثـــم دسست يدي في خريطة الحصيات وأخرجت حصيات ثم رفعت أكبرها حجما وقلت لصاحب أكبر لحية فيهم اسمه عليانإن لم تخني الذاكرة:

-ينفع يا شيخ أرمي بهذه الحصى.

فأجاب عني محمد:

- ولكن هذه ما هي حصى هذه خرسانة من وين جبتها؟ ما يصلح الرمي بهذه الحصيات الله يهديك.

- لكن اسمها حصى في اللغة.

- ما عليك من اللغة هذي ما هي حصى هذي خرسانة ..هـــاي الحصى .. وأراني بعض حصياته.

- عموما شكرا لك وهي بعض ما لدي وسنسأل بشأنها.

ثم سألني: أنت من وين؟

- من اليمن.

نظر بعضهم إلى بعض باستغراب لا تخطئه العـــين ولا يعـــدوه الشعور.

- (!!).

قلت في نفسي لم أدر أن أكون يمنيا ما وجه الغريب في ذلك؟
فرد الحجاج السعوديون ..

– قلنا إنك مصري.

–لا. ولكني أعيش الآن في مصر.

عليان :
– أنت إذن تتكلف اللهجة المصرية.

– أبدا . كيف عرفت ؟ فلم يستطع أن يدلل على ذلك فقد نسي مثلما نسيت أنا أنني قلت له : متشكر، وهذه صيغة مصرية في الواقع .. ثم سأل:

– ماذا تفعل في مصر؟

– أدرس دكتوراه.

– في أي تخصص؟– نحو وصرف .
فقالوا بصوت واحد:

– يا هلا إحنا إذن زملاء .. ثم اقتربوا مني أكثر .. فقلت :

– كيف؟

– نحن مدرسون محمد (نحو وصرف) وأنا فيزيـــاء وســـميعان كيمياء وكلنا أخوة وهذا أبونا عنده حبسة ما يســـتطيع يـــتكلم .. قـــال محمد:

– ما هو عنوان الرسالة؟

– الفروق الدلالية للمواقع الإعرابية.

–هات أمثلة.

– تتشابه الصور الإعرابية وتتردد المعاني النحوية في المواقـــع أحيانا فتأتي السياقات اللغوية والحالية لتفرق بين معنى موقـــع وآخـــر فنحن نقول مثلا: (خرج محمد خوفا) (خاف محمد خوفـــا) (امـــتلأ القلب خوفا) فـــ(خوفا) مصدر منتصب فضله في كل الجمل ولكن معناه النحوي يختلف من جملة إلى أخرى، والبحث يقوم بتوضـــيح الفـــروق الدلالية .

محمد : بحث كبير ومهم .. وماذا كان عنوان الماجستير؟

– كان تحقيق ودراسة لمخطوطة أيضا فـــي النحـــو والصـــرف واسمها (تحفة الأحباب في شرح ملحة الإعراب) لأبي المحاسن عمـــر بن بحرق الحضرمي .. فالملحة أبيات شعرية للحريـــر وهـــي ملحـــة كاسمها جميلة سلِسلة أجمل من هذه الناحية من ألفية ابن مالك وكانـــت

تدرس في الكثير من الكتاتيب في اليمن والمساجد والرسالة مطبوعة تباع في الأسواق وتدرس في جامعات أهلية.

محمد : أيهما أفضل تحقيق مخطوطة أم الرسالة البحثية؟

– الأفضل أنفعها للناس فما قمت به في التحفة هو دراسة وتحقيق أما التحقيق فقد أنقذت المخطوطة التي كانت تباع في مطبوعة قديمة أنقذتها من أخطار علمية فادحة وأثبت فيها أكثر من 150 فقرة ساقطة وضبطتها بعلامات الترقيم وترجمت الأعلام، ووثّقت النصوص .. إلخ أما الدراسة فقد شملت تتبع حياة الشارح ،وأثبت له أكثر من 44كتابا مخطوطا ومطبوعا، لقد اكتشفت أن هذا الرجل كان عبقرية فذة اشتغل في شتى العلوم والفنون الشرعية والطبيعية وكان نابغة زمانه، شأنه شأن علمائنا القدامى الذين كانت مؤلفاتهم تفوق أحيانا سنوات أعمارهم بكثير.

سأل عليان بعد أن قام والدهم من نومه بعد طول الحوار وأخذ مكانه في الدائرة:

– ترى لماذا كانوا موسوعيين هكذا حتى أن المرء أحيانا لا يصدق أن هذا الرجل أو ذاك أنتج كل تلك المؤلفات التي تنسب إليها؟

– نعم لعدة عوامل تتصل بظروف الحياة التي كانوا يعيشونها، أولا ستجد أنهم تفرغوا للعلم منذ عهد الصبا فعاشوا مع العلم وللعلم، فلا يصل أحدهم العشرينات من عمره إلا وهو يجلس للإفتاء.

وثانيا: كان أمتع أوقاتهم هي تلك التي كانوا يعيشون مع العلم قراءة وتأليفا وتثاقفا فيما بينهم، فكان مصدر التلقي الذي طابعه الجد واحدا، فلوَّن حياتهم وتركيزهم واحد، أما الآن بات أمام طالب العلم مصادر تلقي مختلفة ومتلونة ومشوشة، ولا يستطيع أن يركز على مصدر واحد فالفضائيات تأخذ جزءا من الوقت في المفيد وغير المفيد، والشبكة العنكبوتية تأخذ جزءا من الوقت فيما يجب وفيما لا يجب، والكمبيوتر يأخذ جزءا من الوقت ويستقبل الدارس بقسط من التسالي والألعاب بدوره.

ثالثا : كانت الحياة بسيطة فلم يكن طالب العلم مطالبا بمواجهة شلال متدفق من مدخلات العصر الكمالية اليومية التي عليه أن يواجه مستجداتها لاسيما إذا كان عائلا لأسرة، فيقضي جزاء كبيرا من حياته وهو يركض وراء تلك الكماليات التي لم يعد بالمرء عنها غنى، فيقلل من القدرة الشرائية للكتب والمراجع العلمية وكذا التفرغ لحياته العلمية .

رابعا : صار العالم قرية واحدة فأي حدث في أي بقعة قد يكون له التأثير مباشر على نفسية طالب العلم فيتعكر مزاجه ويتغير صفو حياته بخبر يأتيه من هنا أو هناك .. فلا يجد للقراءة أو التأليف مسلكا.

خامسا : ربما حشرت السياسة طالب العلم فيما لا ناقة له ولا جمل فلا بد من إثبات ولاءات وتحديد انتماءات وإلا ضُيق عليه في عيشه وسدت المنافذ أمامه .. وفي الواقع إذا أردنا عودة النوابغ فلا بد

من تخصيص مدن مستقلة في جو بيئي كله مهيأ للعلم والاطلاع والبحث والتجريب والمناقشة ولعل هذا ما يحدث الآن في الدول المتقدمة.

محمد : هل يمكن برأيك ترجمة العلوم الحديثة كالطب مثلا بدلا من اللغات الأجنبية؟

– في هذا سألت أحد دكاترة الطب عن إمكانية الاقتداء بسوريا في ذلك التي تعتمد اللغة العربية في تدريس الطب، فقال : إن مثل ذلك يعد أمرا شاقا وصعبا في ظل الظروف الراهنة؛ لأن المعلومات الطبية تتدفق كل يوم فلابد من الترجمة الفورية والدقيقة التي توفق بين المصطلحات العلمية وتقرب بينها وبين أسماء العلاجات وإلا سيكون هناك إرباك وفجوة، وتأخر في مواكبة الثورة الطبية .. وتعلَم أن الطب يأتي كله من الخارج .. والواقع أنه محق في ذلك فلا بد من إنشاء مجمع لغوي متعدد التخصصات ومنه مجمع لغوي طبي كبير منعقد على مدار الوقت وليس هذا بالشيء الصعب لا سيما أن اللغة العربية من أكبر اللغات من حيث عدد الناطقين بها وهي لغة مقدسة، ولكن للأسف صارت لغتنا عند أبنائها هي القشرة الأضعف أمام اللغات الأخرى، ألستم ترون معي ذلك؟ ها أنت تلاحظ في الحرم كيف أن العرب صاروا يقلدون أصحاب اللكنات فتجد الواحد يكلم المسلم الهندي بلكنته الأعجمية (ممكن حاجي إذا في هبة مكان نجلس سواسوا ما في مشكلة) مع أن هذا الهندي أو البنغالي جاء ليتعلم لغته المقدسة ونحن

نصر على استقباله بالرطانة والتشديق فنفوت عليه فرصة طلاقة اللسان، وقد نسمع غدا من يقول : (صديق! أنا إذا في نوم تحت المكيف بعدين أنتِ بطنك توجعني معلوم) سنذهب نجاريهم في خلط الضمائر ونخاطب المذكر بالمؤنث والمؤنث بالمذكر والحاضر بالغائب ثم يسفر الصباح ونحن نكلم بعضنا بلغة (هندرية) لا هي عربية ولا هي أوردية ولا هي هندية عوان بين ذلك .. ثم ما معنى الإصرار على أن ننادي المسلم بـ(صديق) وهو أخوك في الإسلام، أين كلمة أخي؟!

عليان : وهذا يسري على بقية اللغات للأسف.

– بالضبط بإمكاننا أن نتعلم لغات الدنيا كلها ولكن كلغة مهنية حرفية في مواضع الاحتياج إليها، ونفع الأمة بها .. إنما أن نحولها إلى لغة قومية يومية متداولة فهي خيانة لله ورسوله وكأننا نخجل من لغتنا لغة القرآن التي وصف الله القرآن بأنه ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر :28] وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ [الكهف : 1] كأن اللغة غير العربية عوج، ولقد وجدنا بعض المشايخ من يتعمد نقل المفردات الأجنبية بدلا عن العربية فمثلا بدلا من أن يقول النظام يقول : (system) والملف (file)والرسالة (message) وهذا على مستوى المفردات الجديدة يقول هذا على منبر الوعظ إنها لمصيبة!.

محمد : هذا يعود إلى الانهزامية وعدم الثقة بالنفس.

هذا هو السبب تأملوا حتى على مستوى نقل الخبر .. في الغرب لا يوجد شيء اسمه نشر الخبر بل صناعة الخبر فالخبر يمر على خبير سياسي واقتصادي ونفسي .. إلخ ثم ينشر وبما يخدم مصالحهم لكن إعلامنا مكب نفايات أي شيء يذاع في الغرب يذاع عندنا وأحسن قناة عربية هي التي تفوز بالسبق في نشر ما يصنعون من أخبار .. تحولنا إلى أمة مستهلكة حتى في نقل الأخبار المضللة أحيانا، وعديمة الفائدة أحيانا .. ولو أن قناة غربية تحدثت عن عجوز فقدت كلبها في أحد المطارات سنجد هذا الخبر يتصدر الفضائيات العربية .. وقد يكون لهذه العجوز هي وكلبها مغزى هناك .. ولكن ما مغزى ذلك عندنا ولدينا من الأخبار الإنسانية ما تصلح سبقا صحفيا يفوق أخبار كل الحيوانات ولكنه الاستلاب والتبعية .. ضِف إلى ذلك العجز لقد دهشت عندما وجدت مكتوبا على ثوب الإحرام وعلى السجادة، والسبحة، والطاقية، وحزام الحفظ، وكل أدوات الحاج حتى الهاتف مكتوب عليه (صنع في الصين) يعني لم يبق إلا المطوّف من الصين، إلى هذا الحد صار حجنا على الطريقة الصينية! .. حتى أدوات العبادة لم يبق سوى أن نستقدم كسوة الكعبة من الصين .. وليت أن الصين ترعى حقوق المسلمين في بلدها و .. و ..

الآن بدأ عزف الأغنية من المشرفين والمنظمين ..

– قوم ياحج .. حَجِّي حَجِّي ممنوع النوم هنا .. قوم قوم هداك الله .. أخذت أعطف مستلزماتي .. مد هؤلاء الأعزاء أياديهم للســـلام علي:

– حياك الله وبارك الله فيك.

– وفيكم نالني الشرف بالتعرف عليكم والجلوس معكم، حياكم الله وفرصة طيبة.

اتصل لي الحاج نعمان البراري ..

– أين أنت الآن؟

– أبحث عن أرض تقلني وسماء تظلني فلم نعد ندري أين ننام.

– اطلع عندنا في الجبل لا عاصم لليمنيين مـــن لجـــان التنظـــيم وعمال التنظيف سوى الجبال ..

– دلني على معلم آتي عليك لتنام عندنا.

– أنا الآن أمام لوحة (لبيك) الكبيرة الحمراء .. على رأسي طاقية .. وعلى أنفي كمامة .. وعلى ظهري كيس صغير عليه الأمتعة.

– نعم . نعم .رأيت اللوحة اجلس أمامها.

تسلقنا الجبل بالفعل ونمنا في أماكن نعد استكشافها غنيمة ومع ذلك لم نعدم متطفلين يريدون بسط نفوذهم عليها.

نمت بقية الليل ثم تحركت إلى الخيمة في الصباح صليت الصبح وقرأت المأثورات وحزب القرآن .. لا تزال أمتعة الإخوة الأشقاء من مصر في الخيمة ولم يطلْ أحد منهم وبدأ القلق يساورني فنحن في الثاني عشر من ذي الحجة وربما نتعجل .. نرمي الجمرات بعد صلاة الظهر ونترك منى قبل مغيب الشمس إذ لو غربت تعين التأخير إلى اليوم الثالث عشر ورمى الجمرات الثلاث كاليومين السابقين .. أين أترك حقائب هؤلاء الناس؟ وهذه البلدية وعمال النظافة يتوجهون نحونا وفي الطريق يأمرون الحجاج بتفكيك الخيمات على الرغم أننا في زاوية من الجبل وبعيدون نسبيا عن وسط الميدان .. ولقد أذَّن الظهر وصليت قصرا واتصلت لمحمد صالح الذي ستقلنا سيارته الخاصة إلى اليمن فقال إنه سيتعجل ..ذهبت لأرمي الجمرات ورجعت إلى خيمتي .. الآن انتهى قلقي من تأخر المصريين لقد حضروا إلى الخيمة .. ولقد مروا من هنا ..لم يقصر الأخوة المصريون فقد أخذوا أمتعتهم وزيادة ..وجدت الخيمة منحنية على بعضها وعلى بابها ورقة مكتوب عليها .. " بارك الله فيك وجزاك الله خيرا وجعل الله حجك مبرورا وذنبك مغفورا وعيبك مستورا " .. حسنا!! ولكن أين أمتعتي؟ .. بقي ثوب وفانيلة معفرتان في التراب خارج الخيمة .. ترى ما الذي حصل! .. لا بد أن البلدية قد رمت بأغراضي خارج الخيمة فجاء من أخذ ما راق له

منها وترك الباقي .. طويت ما تبقى وانطلقت مع جموع الحجاج سيرا على الأقدام إلى الحرم ومنه إلى الفندق ..

وبدأتْ الآن أحاديث النفس وهواجس الحج المخالف ومخالفة بقائي في السعودية الذي تم تحديده بصفر وعد صلاحه للحج والعمرة؟؟ .. إنني أمام آخر تحد وهو العبور من نقطة (الطوال) آخر نقطة من أرض المملكة ومسألة أخذ التأشيرة ومخالفتي للإقامة وأداء مناسك الحج بطريقة غير رسمية قد تكون نتائجه غير مرضية .. وأخذت الاجتهادات تسير بي ذات اليمين وذات الشمال ولم يخف الشيخ محمد قلقه من الجواز المخالف .. وما الذي سيترتب على أمر المخالفة في نقطة العبور؟ وبقية الركاب غير مستعدين للتضحية بالموقف من أجل أحد .. والمستحيل عنده أن يترك أحد الاثنين صاحبه المخالف أو ركَّابه الشرعيين .. وكل خيار أصعب من الآخر .. غير أن ذلك لم يمثل عندي أي قلق يستحق الاهتمام .. لأننا باختصار لم نكن في معصية تغضب الخالق وهو المعول عليه تخليص بقية الإجراءات.

تأهبنا للسفر ومع غياب المشرف جاء أحد ركاب السيارة من الغرفة المجاورة يدعى (عايش) وهو لابس ثوب الإحرام يريد أن يعتمر لأحد أقربائه مع أننا على أهبة السفر، ولم أعرف أنه أحد رفقائنا في طريق العودة سأل عن محمد صالح ولما لم يجده قال:

– أخبره أنني بحثت عنه ولم أجده وانصرف .. أخبــرت الأخ محمد فقال:

– لقد ذهب ليؤدي العمرة كما يبدو مع الأستاذ عبد الكريم ومحمد المطري، وقد حذرته من التحرك من الفندق وإننا سننطلق في أي لحظة ونحن الآن نشد الأمتعة للسفر وليس معه هاتف وهذه إحدى مشاكله .. لن يعود إلا آخر الليل لأنه سيخرج إلى التنعيم خارج مكة لينوي العمرة من هناك ثم يعود إلى مكة ويتم العمرة ..(!!) يبدو أن عــايش مصــمم على مبدأ العناد والمخالفة حتى في أحرج الأوقات .. إذن لابد من تأديبه .. خذوا كل شيء يتعلق به .. سلموا مفاتيح الغرف إلى الفندق .. دعوه في مكة يعتمر بثوب الإحرام .. لنمض على بركــة الله تحركنــا بعــد المغرب في اتجاه اليمن بدون عايش .. وفي الساعة التاســعة تقريبــا ونحن على مقربة من الموقف المخصص للسيارات القادمة من خــارج مكة رن هاتف العزي محمد: إنه (عايش) يتصل من الفندق .. لقد ترك له رقم هاتفه عند استعلامات الفندق وعبر الهاتف جرى سيل من التلاوم والعتاب والصراخ .. ثم أخبره أن يستأجر سيارة فورا ويلحق بنا فــي الموقف .. وتم ربط الهاتف بفاعلي خير في الفندق يتدبروا أمره حتــى يبلغ مأمنه .. فقد كان القصد التحرك إلى الموقف الــذي بــه الســيارة وهناك يتم ربط العفش والانتظار له . ولم يتأخر به الوقت حتــى كــان عندنا ..

وكان قد جرى تحدٍ بين الركاب إن كان يستطيع أحد أن يقنع عايش هذا أنه على خطأ؛ لأن عايش لا يؤمن بالانهزام وأعطي قوة لجج وطاقة في العناد والمكابرة وما إن دخل السيارة حتى استقبلوه بصوت واحد.

– يا أخي حرام عليك .. أين ذهبت؟ .. تتصرف على مزاجك كأن الناس لك تبع! .. دائما أمير نفسك بالمواعيد تأتي متى ما تريد .. وتغيب متى تريد .. إذا كان هذا مزاجك خلاص على مهلك، اعتمر كما تحب .. إن شاء الله تصل إلى اليمن وأنت تلبي بثوب الإحرام . . ردَّ عايش:

– وانعم والله ما قصرتم .. كلكم مجتمعون على قلة الدين .. ما شاء الله كان .. شنبات يعتمد عليها .. رفقة على ما في النفس .. قال عبدالله :

– لماذا تذهب للعمرة وأنت عارف أنه لا وقت للعمرة؟

– أيَّن عمرة أيَّن طلي ذهبت لطواف الوادع .. لكن ما شاء الله كان .. خيْرة الله أحْسن كل خيرة .. مادام وهذا خبركم .. ما عاد إلا الصبر .. رد عليه علي :

– على العموم حصل خير .. الله يعينك بس تسلم خمسة وعشرين ريالا مقابل حمل أمتعتك.

– الله يعينكم تسلموا مائتين عربي حق المشاوير من سيارة إلـــى سيارة .. والله عال .. ما باقي إلا هذا .. قال لك سلم خمسة وعشـــرين .. خيرة الله أحسن كل خيرة .. ماذا تفعل إذا قد صاحبك يتركك مجردا من كل شيء؟ هذي رفقة على ما بالنفس صدق ..

محمد : أقول لكم ما فيش داعي للجدال عايش ســـيهزمكم يعنـــي سيهزمكم.

عبدالله : قصته مثل رجل اسمه حمود كان يطلـــق علـــى أحـــد معاريفه اسم أحمد بينما اسمه (علي) .. وكل يوم ..

– السلام عليكم يا حاج أحمد .. ما أخباركم يا حـــاج أحمـــد؟ .. قواكم الله يا حاج أحمد.

قاله له الحاج علي :

–اسمي الحاج علي وليس الحاج أحمد .. فرد عليه حمود معتذرا ..

– عفوا .. اعذرني يا حاج أحمد ذاكرتي باتت ضعيفة دائمـــا إذا في كلامي غلط تنبهني يا حاج أحمد .. فقال له الحاج علي يوما :

– اسمع كان أبي وأمي قبل أن أولد يتمنيان أن يولد لهمـــا ولـــد فيسميانه عليا، فكنت أنا ذلك الولد فسموني عليا ثم قيل : مشى علي ..

تكلم علي .. كبر علي .. تعلم علي .. تزوج علي .. أنجب علي .. ثم ذهبت للحج ورجعت فسماني الناس الحاج علي فأنا الحاج علي .. رد عليه حمود قائلا :

- أوه! والله قصتكم طويلة يا حاج أحمد ..!
- فاتركوا عايش ما في فائدة واعتذروا له على تصرفكم ..

لا عجب أعجب من أن تحج مع أناس أميين ..ففي هذه الرفقة وجدت من كبار السن المفارقات في مهارة الاتصال الإنساني التي يعكس حجم تركة الجهل عندما تجده مستعدا لإفساد حجه في أي معركة يفتعلها من أجل الشيء التافه .. مثل دبة ماء زمزم تسرب منها القليل من الماء ..أو أحدهم حرك بعض مستلزماته فيصرخ ويطيش بلسانه يمينا وشمالا .. وكأن الحياة لا تستقيم إلا على المغالبة المستمرة وإبداء شدة الحرص بسد مسالك المتطفلين، فما لم يكن صوتك وسوطك مرفوعين وجدت نفسك موضع نهب الآخرين، وهذا الأسلوب فيه هدر أخلاقي وهدر للحسنات التي جاء الحاج لجمعها .. أسلوب ساقه الجهل والأمية، فالصبر والرحمة والإيثار ولين الجانب عبادات جليلة، ويغفل البعض أن الحج المبرور مشروط بعدم الرفث والفسوق والجدال في الحج.

واقتربنا من الطوال يا مالك الملك إياك نعبد وإياك نستعين .. في نقطة الطوال السعودية على الحدود تدخل السيارات الساحة وينتظم

المشرفون على الحج في طوابير لأخذ التأشيرة للركاب وهناك لا تعدم أن تجد فرقة استعراضية من الموظفين القصّار غير المهنيين يتفننـــون في ابتداع وسائل تطويل الطوابير .. وجعلها على قصرها قصة ترجي واستعطاف وملأ الساحة بعبارة يا فندم طال عمرك .. شوية معنـــا الله يخليك .. لنا والله كثير .. لو ينظر جنابك في الجوازات .. وإذا خفـــت الموسيقى قليلا أغلق معالي طال عمره النافذة بحجة عـــدم الانضـــباط ليسمع العزف من جديد ويشاهد رقص التدافع ثم يستأنف نشاطه وهكذا .. عيال يعني عيال بلا ضابط ..وتنظيم بلا رابط .. ومســـؤولون بـــلا مسئولية .. فيا ليت أن المملكة ربحت السمعة المجانية واختارت مـــن يعكسون الذوق الحضاري لا سيما أن الإسلام وصـــى وصـــايا كثيـــرة بالجار وليكن للضيافة العربية دور في الموضوع ..أم أن بدهيات كهذه كثيرة علينا وعليهم حسبنا الله ونعم الوكيل ..أقول يا ليـــت أن تكـــون أحرص على تمتين أواصر الأخوة الإسلامية لكي يفتحوا للشعوب نافذة الوحدة الشعورية كما اتحد الأوربيون بل وكما صار الإنسان هناك لـــه قيمة إنسانية وحقوق اجتماعية مرعية وضمان اجتماعي بصرف النظر عن جنسيته .. كل شيء أخذناه من الغرب عدا التجاوب مـــع الحقـــوق العامة لأماني الشعوب والتفكير الجاد لاختصار المسافات إلـــى اليـــوم الحتمي والقدري الذي تكون الأمة فيه كما كانت لـــ1300 عام.

توجهت إلى نافذة خاصة بغير الحجاج وكانت شـــبه خاليـــة رأي الموظف الشاب تأريخ التأشيرة وحسبها بالآلة ثم قال : بشير .. تـــأخير

ثمانية أيام !! عليك غرامة .. اذهب سددها .. أو اذهب إلى أبي شنب داخل تفاهم معه .. وجدت الضابط حائطا خرسانيا والشـــنب المرتـــب قلت له :

– عفوا يا فندم المختص يقول تلزمني دفـــع غرامـــة .. جئـــت لأراجعك.

فرد علي:

– اذهب وسلم خمسمائة ريال ..يا لله (قالها بحزم).

– لقد فاجأتني يا فندم لا سيما أننا أيام عطلة ولم استطع تحويـــل فلوس من اليمن.

– روح سلم خمسمائة .. الأمور ما هي لعبة وأنت مرتكب عـــدة مخالفات .. ثم كلم هو آخر يستلم المبلغ وكان أذوق من أبي شـــنب .. أعطيته مائة دولار وأخذها قائلا : مائة دولار؟! حج بمائة دولار؟ أحمد ربك وعادك زعلان .. وختم الجواز ولكن من دون ســـند .. شـــكرته وقدمت المباركة لنفسي .. حجا مبرورا .. وذنبـــا مغفـــورا ..وعيبـــا مستورا ..وعودة حميدة ..وحياة مديدة.

(النهاية)

1430هـ الموافق 2009م

***صدر للمؤلف:**

- تحفة الأحباب في شرح ملحة الإعراب مكتبة الإرشاد ودار بن حزم– لبنان
- دليل المعلم الناجح عن مكتبة الإرشاد – صنعاء
- رحلة قبل الرحيل عن مكتبة الإرشاد ودار ابن حزم – لبنان
- لغة الخطاب الدعوي ضمن سلسة الأمة القطرية رقم (143) – قطر.

***كتب جاهزة للطبع:**

- علم المعاني كتاب منهجي.
- الحرية من منظور إسلامي.
- الفروق الدلالية للمواقع الإعرابية.
- شر البلية – مجموعة مقالات ساخرة في بعض الصحف.
- النحو الدلالي.
- دراسات نحوية.
- تأملات سياسية.
- تأملات فكرية.
- شبهات وردود.
- قصة إشراقة الروح (قصة حج).
- الخيط الأبيض– ديوان شعر.